

احتضار قطاجور

محمد المنسى قنديل



مختارات فصول

سلسلة أدبية شهرية

٣٠

أول يوليو ١٩٨٦

مختارات فصول
سلسلة أدبية شهرية
تصدر عن
الهيئة المصرية
العامة للكتاب

مختارات فصول - مختارات فصول - مختارات فصول

احتضار عجوز

محمد المنسى قنديل

احتضار قط عجوز

ببطء وشاعرية ، نفذ الشيطان من فتحة ضيقة في سقف غرفتي . عرض على صفقة مغرية .. أن يأخذ كل مابقى من سنوات عمرى الخاوية .. لقاء لحظة واحدة من المتعة .. قبلت الصفقة على الفور . وكنت كسير القلب وحزينا فوق العادة ..

.. هكذا أوقفت سيارتى أمام باب المدرسة . دهست العجلات أكوام الورق الأصفر المتساقط تبعث وشيشا كالرعدة . للخريف رائحة الاحتضار . سيارتى عجوز مثلى . كفت في المدة الأخيرة عن الأعطال المؤقتة . كأنها تستعد للموت النهائى . قلت للفراش اننى أريد مقابلة حضرة الناظر أشار للداخل فى تكاسل . مبنى المدرسة له لون المطر العطن وبقايا الذباب فى الحوش الرملى . انفرط عقد التلميذات الأزرق ــ عيونهن ــ براقة ومستديرة . رمقننى بنظرات نزقة وجريئة لحد الخجل تضاحكن حين اكتشفن كم أنا عجوز . حاولت أن أسير معتدل القامة لكن رائحتهن . جالسات على المقاعد . متكئات بتراخ على جذوع الشجر . يتقافزن فتهتز كل قطعة من أجسادهن . رائحتهن حارة مفعمة بالنضارة .

وبعد عدة خطوات تحول فضولهن الى لا مبالاة • أدرن ظهورهن • وواصلت السير وحيدا ••

نهض الأستاذ سليم من خلف مكتبه مهللا ••

ـ عبد التواب بيه •• يالها من زيارة ••

تصافحنا بحرارة أكثر بقليل من الود الذى يكنه كل منا للآخر • جلست متعبا على المقعد الجلدى • انشغل هو بالضغط على الجرس قلت محاولا المرح ••

ـ تلميذتك القديمة أصرت على أن تدعوك لزفافها غدا •

ابتسم فى ود ••

ـ أصبحت سامية عروسة •• نضجوا سريعا وتركوا لنا الشيخوخة ••

ألح على أن أشرب شيئا ظل الفراش واقفا حتى طلبت فنجانا من القهوة • واصل التحدث معى بشكل متقطع وهو يؤدى أعماله العادية • يوقع الأوراق ويرد على التليفون وينهر المدرسين • يحاول أن يبين لى أن آلته مازالت بخير تأمر وتنهى لم تنسحب الى ظل المعاش البارد كما فعلت أنا •• أحيانا يجعلنى أكرهه ••

وضعت بطاقة الدعوة المزوقة على مكتبه قرأها بصوت مسموع كأنى لاأعرف مابها • واصل الاسئلة

السخيفة عن العريس والاجــراءات والعــائلة لم أكن أرتاح له كثيرا لكنها صلات القرابة اللعينة وارتباط ابنتى سامية بكل ذكريات التلمذة · سوف أفــرغ من القهوة وأنصرف · ليته لايحضر الزفاف قلت محاولا التخفيف من احساسى بالحنق ··

ـ انت لست غريبا عن البيت بالطبع ·

وقع بعض الأوراق فى عجلة وضع الفراش فنجان القهوة أمامى · قال سليم ··

ـ أنت تعرف اننى كنت أحب سامية كثيرا · كأنها ابنتى بالطبع ··

أطلق ضحكة خشنة ســخيفة جاريته رغم أننى لم أفهم المقصود من النكتة فكرت ولابد اننى مريض لأشعر بكل هذا الحنق تجاهه دخل الفراش مال على آذنه وهمس بصوت خافت وضعت أنفى فى فنجان القهوة وهتف سليم فى عصبية ··

ـ أدخلها فورا ··

احمر وجهه بشدة · فكرت فى ضيق انه يحاول أن يســتعرض أمــامى دورا من أدوار التسلط · كأنــه لايستطيع أن يؤجل هذه الأمور لما بعد انصرافى ·· دخلت ·· فتاة ·· مجــرد تلميذة نحيفة نوعا ما ··

ترتدى «الجينز» والسترة الزرقاء مثلهن تماما ..
رمقتنى بنفس النظرة المستطلعة الجريئة .. فاكتشفت كم يبدو وجهها غريبا .. أصابتنى رعدة لا مبرر لها.
دق سليم بقبضة وهتف فى لهجة عنيفة ..
ـ أغلقى صدرك يافاجرة .

لم يبد عليها أنها تأثرت بهذا العنف مدت يدها بتراخ وأغلقت الزر العلوى من البلوزة البيضاء أخفت المثلث الأبيض الذى كان يمتد من رقبتها الى أسفل .
تركت الفنجان وانتبهت اليها بكليتى ، زأر الناظر مثل حيوان جائع ..

ـ أنت عار على المدرسة يؤسفنى أن هناك تلميذة مثلك فى مدرستى ..

انهال عليها بقائمة اتهامات مفزعة عجزت عن الاستئذان والانصراف ظللت أتطلع اليها فى انبهار آبله البنطلون ضيق يبرز كل التفاصيل الممكن ابرازها .
الشعر مشعث بعفوية مثيرة .. وقائمة الاتهام طويلة شكاوى من كل أولياء الأمور التى ساهمت فى افساد أخلاق بناتهن . وثدياها متكوران تامين الاستدارة .
فوجئت بها ترمقنى بنظرة جانبية . تضع حولى جزءا من عينيها الواسعتين كأن بيننا نوعا من التواطؤ الخفى

غير مبالية بالضجة المفتعلة التى يثيرها الناظر .. قال فى حزم :

ـ أنت مفصـــولة .. ليأت ولى أمــرك ويتســـلم أوراقك ..

اهتزت لم تع سوى الجملة الأخيرة اختلجت شفتاها الوحشيتان كأنما تخفيان احتجاجا مكتوما ازدادت حدة الناظر ..

ـ خذى كتبك وغادرى المدرسة فورا ..

وجدتنى أتكلم .. كلا .. تكلم شخص آخر بداخلى .. لم أكن أعرف من قبــل أنه موجــود . قال كلمات متعثرة مرتعدة ..

ـ قد تكون مظلومة ياحضرة الناظر يجب أن تعطيها فرصة للدفاع عن نفسها ..

التفت الى فى دهشـــة . التقت عينانا فى نظـــرة مباغتة متسائلة . أخفضت عينى عاجــزا عن الاجابة وواصلت القول فى اصرار ..

ـ الفصل قرار خطير ولا أرى انها تستحقه ..

دمدم بارتباك وهو مأخوذ بالاعتراض :

ـ انهـــا ليست المرة الأولى ياعبد التــواب بيه ان

وجودها فى المدرسة سوف يؤثر على بقية التلميذات ..

كان الشخص الآخر فى داخـلى مصمما على عـدم التراجع ..

ــ الفصل من المدرسة يضيعها تماما .. اننى واثق فى أن قلبك الكبير لن يســمح بتدمير مستقبل هــذه الفتاة ..

تمتم مدهوشا .. قلبى الكبير ؟ وضعته فى مأزق غريب .. والفتاة واقفة بيننا ترقب صراعنا الساذج المرتبك لم تكن تتنفس .. أضفت كذبة غريبة ..

ــ من أجــل زيارتى الأولى يجب أن تسامحها .. اننى أحس انهــا مثل ابنتى ســامية .. و .. ابنتك أيضا ..

كنت أشم رائحتها . ذئب شره جائع . جلس سليم على مقعده . قال بصــوت خافت خشــية أن تســمعه الفتاة :

ــ انك تحرجنى ..

رفعت رأسى .. قال الشخص الآخــر بداخــلى فى تصميم ..

ــ من أجل خاطرى ..

حدق فى وجهى يبحث عن مبرر . عن تغير ما ..
لكن الشخص الآخر بداخلى حاصره .. حاصرنى ..
قال فى ضيق ..

ـ هذه هى المرة الأخيرة .. عودى الى فصلك .

ألقت على نظرة قصيرة خاطفة مليئة بالانتصار . لم تكن تشكرنى . غادرت الغرفة دون كلمة تركت لنا صمتا متثاقلا .. وضعت الفنجان على فمى فوجدته فارغا . كنا غريبين والشخص الآخر ينسل من داخلى على مقعد مقابل ويرقب وجهينا الكئيبين بضحكات هازئة قلت :

ـ شكرا على القهوة ..

تمتم فى برود . شكرا على الدعوة ..

تداخلت أصابعنا باردة ومرتجفة . دوى الجرس . أسرابهن الزرقاء . رائحتهن تملأ آنفى . لم آجرؤ على رفع عينى للبحث عنها . فى الخارج رأيت الورق الأصفر المدهوس والأشجار العارية والبرد يلفحنى لعلى أستيقظ . قدت السيارة بسرعة كبيرة ضغطت آلة التنبيه تقافزوا من أمامى لأقرب رصيف سمعت سبابهن. رأيت الشرطى يدون مخالفتى . أدور فى حلقات متصلة كأننى محموم أشاهد نفس المناظر وأرتكب نفس

الأخطاء عدت للمدرسة . نظرت فى ساعتى . ثم عاودت المسير كنت وحيدا كما قدر لى منذ زمن بعيد .. حتى أحلامى تبددت والطرق تشابكت والمبنى الأصفر الملطخ بخيوط المطر وبقايا الذباب يتذبذب كأنه مقبرتى .

وعندما عدت للمرة الرابعة أو الخامسة كان باب المدرسة مفتوحا .. وبحرهن الأزرق يملأ الشارع زحفت وسطهن بعربتى العجوز بقلبى الكسير النزق أغوص بين أجسادهن الفتية والرائحة تملأ آنفى سمعت صراخهن الخافت وأيديهن البيضاء تضرب مقدمة العربة وضحكاتهن حين يلمحن شعرى الأبيض بل ان احداهن قالت كلمة بذيئة حين لمحت عينى النهمة .

ورأيتها .. منفردة فوق الرصيف المزدحم .. تسير بثقة فلا تهتز الا أجزاء قليلة من جسدها .. لماذا لا أنصرف ؟ .. اننى لا أعرف حتى اسمها .. اقتربت بالسيارة . سرت ببطء فى موازاة الرصيف ضغطت آلة التنبيه أسرعت قليلا . توقفت . رأيتها قادمة بلا مبالاة . المثلث الأبيض من صدرها عار .. ناصع شفتاها وحشيتان غريبتان .. انحرفت فجأة فى شارع جانبى .. أسرعت خلفها . سمعت خلفى صوت ضحكاتهن . أدركن بغريزتهن اننى أطاردها .. كنت

ألهث · والشخص الآخر يتمطى بداخلي يفتح كل جروح الحرمان · الشارع أصبح خاليا · ووجهها مازال متجهما ·· ضغطت على آلة التنبيه · ابتعدنا مسافة كافية عن المدرسة · جسدها في ضوء الشمس يتفجر بحيوية دافقة عما رأيتها في حجرة الناظر ·· وقفت في محاذاتها · لمحتني بطــرف عينيها بلا شك ·· لعلها تســخر من حركاتي الصبيانية · أخرجت رأسي من نافذة السيارة ·· تطلعت اليها في توسل صامت أن تستجيب لي ·· بهذا الوضع لم تكن تستطيع تجاهلي · قالت بتعال كأنها لم ترني من قبل ··

ـ ماذا تريد ··؟··

المرة الأولى التي أسمع فيها بحة صوتها الغريب · كأنه يخرج من داخل أعماقها لا من بين آسنانها ·· بلعت ريقي قال الشخص الآخر ··

ـ أستطيع أن أوصلك ··

ـ لماذا ···؟ هل تريد المقابل ؟···

هتفت أدافع عن نفسي :

ـ كلا ·· أنا عجوز لدرجــة لا أفكر فيها في أي مقابل ·· عجوز وحيــد كما ترين ·· كنت أتحــدث

بطريقة مبتذلة حمقاء .. انفرجت شفتاها عن ابتسامة ساخرة ..

ـ ان بيتي قريب من هنا ..

قلت متوسلا .. لن نذهب الى آبعد من ذلك ..

أدرت المحرك في سرعة خاطفة . كانت بجانبي . كنت أخشى أن ألتفت وآتأملها فلا آجدها موجودة .. لم يكن يبدو عليها أية حيرة أو خـوف .. كانت فاسـدة بلا شك ورائحة فسادها المثير يملأ أنفي . رغم سنوات الاستقامة المضنية . ورطوبة الوحدة . كانت هي أولى نزواتي ولعلها آخرها .. تذكرت ابنتي سامية . انها الآن تضع اللمسات الأخيرة على فستان الزفاف لا آشعر بأى افتقاد . عندما وقفت أتلقى العزاء في آمها . كان الجميع أكثر حزنا منى .. كنت عاجزا عن اظهار ذلك أية قيمة تبقى للذى يذهب ..

مسترخية تماما .. رأسـها مضطجعة على حـافة المقعد . عيناها مغمضتان . تأخذ أنفاسها وتزفرها في عمـق . الصـدر المتكور مشرئب . والمثلث الأبيض الناصع يتحرك صعودا وهبوطا شعرها متناثر . يلمس وجهي . فكر الشخص الآخر في داخلى . آستطيع آن أذهب الى أى مكان .. قلت في خوف :

ـ اسمى عبد التواب .

قالت مغمضة العينين .. غير مهم

العربة العجوز تجرى بهوس . والمؤشر يرتعد . والنهر هادىء من كثرة ماغاض . كنت بحاجة لالتقاط أنفاسى .. التفت اليها .. تلمست بأصابعى المرتعدة خصلات شعرها أزاحت رأسها بعيدا . قالت ..

ـ وتزعم انك عجوز ..؟

قلت متوسلا ..

ـ ما اسمك ..؟..

ـ دولت

ـ أنت فى الثانوية ؟

ـ أجـل ..

زمت شـفتيها . سلطت على عينيها الغـريبتين . سألتنى ماذا أريد . كنت عاجزا عن صياغة أية اجـابة فى كلمات مهذبة . والآخر فى داخلى ـ مثل طفل شرير ـ يدق جدار صدرى .. قلت فى خجل ..

ـ لى ابنة أكبر منك .. زفافها الليلة

ـ هل فعلت كل هذا لتدعونى للزفاف ؟

ـ أنا أرمل .. ماتت زوجتى منذ عشر سنوات . لم أعرف قبلها أو بعدها نساء آخريات ..

ـ هل هذا عرض للزواج ..؟..

ـ لا تكونى قاسية

لانت ملامحها بعض الشيء . تخلت عن السخرية وأصبحت أكثر رقة . لعلها أدركت مدى ضعفى توقفت عند هذا الحد ولم أدر ماذا أفعل . تسلل الشخص الذى بداخلى هاربا فرأيتنى وحيدا أسير نزوة حمقاء آنا غير مسئول عنها .. قلت فجأة ..

ـ هل تريدين نقودا ..؟..

قالت بدهشة ..

ـ لماذا ..؟..

أخرجت حافظتى . مددت أصابعى المرتعدة بورقة حمراء .. قلت ..

ـ لاشيء .. أنا بحاجة لأن أعطيك شيئا ..

قالت بحيرة ..

ـ أريد أن أنصرف ..

قلت متوسلا .. لاأريد مقابلا لها .

قالت بنفس الحدة ..

ـ لاشيء دون مقابل

قلت .. خذيها وانصرفى ..

قالت .. أنت مجنون ولاشك ..

قلت ..

ـ هاهو الباب مفتوحا ولا أستطيع أن أمنعك ..

كنت أخاطب الجـانب الشره فيها • خلف العينين والفم الجائع والشعر الأشعث .. كنت أحاول أن أكون أقوى منها قبضت أصـابعها على الورقة • كورتها فى كفها • فتحت الباب • نزلت فى صمت • وقفت قليلا تتأملنى فى تشكك ثم مضت .. دون أن أحاول السير خلفها ..

.... لم أكن أعرف أن ابنتى سامية بهذا الجمال • حاولت أن أقبلها فقالت ان هـذا سـوف يفسد زينـة العرس • ضـج البيت الصامت بالحيـاة • جاء أناس لا أعرفهم • ولا أعرف من اتفق معهم • زينات فاقعة وكراسى صفراء مليئة بالعتة • جاء الطباخون وأزاحوا «حكمت» من موقعهـا التقليدى .. وهبط المدعـوون كأنهم قادمون من كوكب آخر .. أناس كنت أحسبهم قد اختفوا من الحيـاة بطـريقة أو بأخـرى • وكانوا يحسبوننى قد مت • تصافحنا بحرارة غير عادية وسامية فراشة وحيدة • جاءت بالشخص الذى يقف بجانبها من مكان ما .. حدثنى بأكثر الطرق أدبا وتحفظا • وكانت كلمتى مجرد رأى استشارى حتى وسط هذه الضجة •

وسط كل هؤلاء المدعوين الغرباء يبدو أن هنـــاك من يعرف ابنتي وزوجها خير منى •• ان مايربطنى بهما شيء عام •• لم آكن آدرى آننى آعرف هذا العدد الهائل من النسوة : يتركن أيديهن فى يدى حتى أشم رائحة أجسادهن • ومن عشرات الاحتكاكات فى هذا الزحام تتولد شرارة الزواج الجنسية • تعبق الجو من أجل عروس الليلة • ومع تصاعد درجة حرارة الحفل يزداد انفلات الجميع • كنت أهذى •

مجنـــونا مهـرجا نزقا داخــل جلدى البــارد • و «حكمت» واقفـة فى الركن تتأمل ســامية • بثيابها الكئيبة كانت غريبة مثلى منذ أن ماتت زوجتى والكلمة العليا فى البيت لها • لقــد بــدأت آخافها • حــاولت الاندماج فى الحفل • وأخذ والد العريس على شروطا لم أفهمها •• رددت كلمات المأذون فى بلاهة • وفى النهاية وضع سليم يده على كتفى •• هل كان يريد أن يهنئنى حقا أم يريد أن يضعنى على كرسى الاعتراف ••؟••

ـ أهلا أستاذ سليم •• شرفتنى بالحضور ••

صافح سامية بحرارة وعاد الى • نظراته المتفحصة تتغلغل فى • تحاول رؤية الشخص الآخر لدهشتى لم أهرب منه • وقفت أمامه طفلا مذنبا • قلت له محاولا

الترضية . هل لك رغبة فى بعض الشراب ؟.. قال بمرح .. هذا يتوقف على النوع .. قلت .. هناك زجاجة مخبأة فى درج مكتبى .. لم يكن غاضبا لدرجة كبيرة كما توقعت .. تبعنى وعندما أصبحنا وحدنا أدركت أنه لا مفر من الحديث عنها .. وضعت قليلا من الخمر فى كوبه وقليلا فى كوبى ومزجناهما بالماء وتبادلنا ضحكات شريرة خافتة . سألته مباشرة ..

ـ هل غضبت منى عندما تدخلت بينك وبين هذه التلميذة ..؟..

لوى لسانه داخل فمه . تجرع الكأس فى جرعة واحدة فاضطررت لملئها من جديد .

ـ الحقيقة لا أدرى .. قلت لنفسى انك لاتعرفهن لذا رأيت أن قسوتى غير مبررة .

لو أننا تهاونا فسوف نفاجأ بأخواتنا الشرقيات وهن يؤدين تحية العلم معنا فى طابور الصباح .

جاريته فى الضحك . قلت . انت تبالغ . قال .. اننى لاأعرف مدى تداخل سماسرة الجنس بين فتيات المدارس . قلت محاذرا ..

ـ هذه الفتاة .. يبدو شكلها غير فاسد لهذه الدرجة ؟..

تجرع الكأس كله وهتف في حدة ..

ـ انها أسوؤهن على الاطلاق . انها لاتخجل ولاتخفى ذلك .. لست أدرى لماذا هى حريصة كل هذا الحرص على الدراسة ...

فكرت لعله هو أيضا يريدها . وهذه الرغبة تسبب له خوفا هستيريا . بدأ يصب لنفسه ويشرب . قال فجأة ..

ـ .. أنا أكرهها . أكرههن كلهن ..

عزفت الموسيقى زفة العروس .. دارت ابنتى مع زوجها وسط صفوف المدعوين . كانوا يقبلوننى كنت سعيدا وابنتى جميلة جدا . لماذا لم أحبها من قبل ؟.. حتى حكمت أخذت تبكى من الذى صنع هذا الزفاف البهيج .. ؟ أتى سليم أفندى على نصف الزجاجة وهتف بلهجة خطابية . لقد فسد التعليم وهن يعرفن أنه لا جدوى . كان ضعيفا مثل طفل . وصلت السيارة المزينة بالورد والبلونات . قبلتنى ابنتى بعين دامعة . حاولت أن أسند سليم فتهاوينا معا على الأرض . وغرقنا فى الضحك المتحشرج .. وعدته قائلا ..

ـ لن أعود لرؤيتها مرة أخرى .. بحق كل عهود الصداقة السخيفة .

لم يفهم ماأعنى . سارت السيارة وانتشرت فى الجو سحابة من أوراق الزهر الملون . أصبح البيت خاليا لحد الجفاف . كنت متمالكا لنفسى . كان سليم حشرة . صرخت فيه .. انهض لن تقضى الليل على الأرض .. واستلقيت على فراشي . ونمت دون أى أحلام ..

الصباح شمس رقيقة . وحكمت صامتة . وجريدة مليئة بالوفيات المفاجئة . آنا العجوز الوحيد الذى أخطأه الموت .. هل حاولت سامية الاتصال بى أم نسيتنى نهائيا . دخلت عصفورة صغيرة الغرفة . دارت فيها مستطلعة ثم حاولت الخروج . ورغم الضوء المتدفق من النافذة المفتوحة لم تستطع . فقدت حاستها نحو الحرية . عاودت الدوران . ترتطم بالجدران والمرايا واطارات الصور . أخذت أضربها بالجرائد حتى لاتصطدم بوجهى . امتلأ البيت بحفيفها المفزع . لاتهتدى ولاتكف عن الدوران . روح هائمة ضلت طريقها للقبر . كنت أضربها وأتخبط معها . وأرتدى ثيابى فى سرعة محمومة وأغلق زجاج النافذة حتى لاتفلت . وفزعها الغريب يوقظ داخلى جوعا ممضا . يدفعنى فى الحاح . أغلقت باب الحجرة . وتسللت

هابطا السلالم وزامت السيارة • وكانت حكمت فى النافذة ترمقنى بعين ثابتة • تداخلت الشوارع والأشجار العارية والنهر والعربات وقطع السحب البعيدة لمحت المبنى الأصفر الملوث بالعطن • ربضت فى الشارع الجانبى لعلنى غفوت لأن زوجتى خرجت من القبر وأعطتنى زهرة من زهور الصبار ولعلنى ظللت مستيقظا لأن الطفل الصغير بصق على زجاج النافذة وكان يقصد أن يبصق على ولعلنى كنت ميتا •• لان المدرسة فتحت أبوابها ولمحت بحرهن الأزرق ينساب خارجا فأغمضت عينى وتلوت كل التعاويذ القديمة كى لا أراها ولكن يدى ظلتا مشلولتين فوق المقود ••

أصابعها تدق زجاج السيارة • الشفتان الوحشيتان تتطلعان الى • كنت فزعا فى سيارة مغلقة • والأصابع تدق على جمجمتى فتحت الباب • جلست بجانبى فى صمت • صدرها مازال متكورا مشدودا والمثلث الأبيض أوسع من ذى قبل • وأشد نصاعة • غيرت البنطلون وارتدت ثوبا قصيرا حين جلست وضعت الكتب فى حجرها • انحسر الثوب أكثر فظهر جزء بكر فاسد من جسدها لم أره من قبل سرت ببطء • كنت مقبلا على لحظة أخرى من لحظات العذاب المجنونة التى أستعذبها •

حتى النهر بدا ناعما كثعبان يفح وشيشا متواصلا ٠
وطيور الماء الرفرافة الساذجة تستحق الرثاء الجميل ٠٠
قلت ٠٠

ـ قد لاتصدقين ذلك ٠٠ ولكننى ٠٠ أحبك ٠٠

ضحكت بنعومة بتلك البحة المميزة ٠٠

ـ هكذا سريعا ياله من تصريح لا مبرر له ٠٠

كنت أهذى وأتكلم بسرعة ٠

ـ عندما كنت صغيرا كنت آخشى البرق ٠ كان يخطف عينى بألوانه الرمادية الزاهية والضجة التى تحدث فى أثره ٠٠ لكننى كنت أترقبه ٠ يأتى فأحسه ينفذ الى داخلى ٠٠ أشعر بالخوف وأبكى ٠٠

لم تكن رقيقة معى ٠ شعرها الأشعث يلطم وجهى ورائحتها تملأ أنفى ٠ وتقف بيننا هذه السخرية المريرة على شفتيها ٠٠ لقد مت أكثر من مرة ٠٠ وآنا آعبر النهر بحثا عن الأصداف الفارغة ٠٠ حين عشقت قوس قزح البعيد ومددت له يدى فلوثها بالضوء ٠ مت وآنا أعيد تركيب الحياة التى عشتها ٠ كما يجب آن تكون ٠ دون أن تتكرر لحظة ودون آن تموت لحظة ٠ قلت لها ٠٠

ـ لاأريد شفقة ٠ حاولى آن تفهمينى ٠٠

قالت :

ـ لماذا تتحدث بهذا الشــكل المتباكى السخيف ٠ العالم ضيق ملىء بالعيون المبحلقة ٠٠

ظلت تكن لى نفس الشعور العدائى ٠٠ لم تسألنى الى أين نمضى ؟٠٠ ذهبت العربة بنــا الى مكان لم أكن أعتقد اننى أعرفه ٠ قلت :

ـ ان سليم أفندى قد ســكر بالأمس وارتمى على الأرض ٠٠

لوت فمها ولم تعلق ٠

قلت باصرار ٠٠

ـ انه يقدرنى كثيرا ولولا وساطتى لتم فصلك ٠

كان الرمل أصفر والصخور مسنونة ٠ ضحكت فى صوت خافت مبحوح ٠٠ أيها الثعلب العجوز هذا المكان يصلح لمقبرة وليس لممارسة الحب ٠٠ امسكت كتفيها ٠ قبضت بفمى على شفتيها الوحشيتين ٠٠ لعلها تكف عن السخرية ٠٠ كدت أنتزع نهــديها ٠ طــويت خصرها النحيف تحت ساعدى ٠ فوجئت بها أكثر عنفا ٠ نار متأججة لاأتحمل لفحاتها ٠ لسانها يتلظى داخل فمى ٠ وثدياها ينتفضان ويرتطمان بصدرى ٠ شعرها الأشعث يغطى وجهينا معا ٠ لم أتمالك الا أن أسكن مبهورا أمام

اندفاعها .. كان فتيا حـــارا . وأنا عجــوز لاهث . قالت ..

ـ أهذا ماتريد .. ألا تريد رؤيتى عارية ..؟..

فتحت أزرار «البلوزة» دون أن تخلعها . اتسعت مســاحة المثلث . تداخــل اللون الــوردى فى اللون الأبيض . أغمضت عينيها كأنما تبتهل .. تقدم نفسها قربانا لاله وثنى عجوز . وضعت يدى على صدرها .. أحسست برغبة حارقة للبكاء .كانت حرارتها ونبضاتها تسرى خلال أصابعى .. دم جديد يضخ داخل عروقى المتعبة .. قلت فى عجز حقيقى ..

ـ لا أستطيع .. لا أقدر ..

غطت صدرها . قالت بحدة ..

ـ ماذا تريد اذن أيهــا العجوز القــذر .. ماذا تريد ..؟..

كانت ترتعد . وجهها متقلص ..

ـ أنت والناظر وبقية الخنــازير الذين يريدون ولايستطيعون .. ماذا تريد ؟.

قلت يائسا ..

ـ أنا لست مثلهم .. أنا أحبك ..

تمتمت فى حنق ..

ـ قذر خنزير ..

كانت الصحراء حولنا تزوم فى صوت خافت . تستعد للعصف . والشمس تعرى كل شىء . أمرتنى . أدر السيارة . حاولت أن أفعل ذلك فأجهشت فى البكاء . تفجرت داخلى ينابيع غريبة من الحزن ، اهتز جسدى فى نشيج متواصل . جواد عجوز كل المراهنات عليه خاسرة ولم يبق الا أن يطلق عليه الرصاص . مدت ذراعيها وضمتنى . كان وجهها خاليا من السخرية هدهدتنى مثل طفل صغير . كان يجب آن أكف عن البكاء وأن أقود العربة وأصمت . هرمت مثلى وصغرت أنا وتقارب عمرانا .. قلت :

ـ هل تأتين الى فى المنزل ..؟..

قالت فى بساطة وود ..

ـ سوف آتى غدا ..

سرنا فوق الطريق الممهد . قلت ..

ـ سوف أصف البيت لك .. كانت الأشجار مازالت عارية والأرض مليئة بالورق الأصفر المتساقط . واقتربت لأقصى ما أستطيع من البيت . كنت أعرض نفسى لفضيحة كبيرة .. قلت ..

ـ ها هو ذا على بعد .

قالت باهتمام ..

ـ أتسكن فيه وحدك .

قلت :

ـ أجل .. عندى خادمة عجوز فقط ..

قالت

ـ أحيانا كثيرة أحلم ببيت واسع أنا فيه وحدى .

قلت .. أين تسكنين ..؟..

لوحت بذراعها فى قرف .. قريب من هنا .. بيت صغير مزدحم بالمخلفات والقاذورات كانت تبدو أجمل من أى وقت مضى وأكثر رهافة . تمنيت أن أقبلها .

ـ لم أعد أذكر وجه زوجتى ..

قالت ..

ـ ألا تحس بالبرودة فى هذا البيت .

قلت انه دائما بارد .. وددت لو أسألها عشرات الاسئلة لكن هذه اللحظة الرقيقة لم تكن تسمح بفتح أى جرح . قلت لها ..

ـ ستزورينني حقا ..؟

قالت :

ـ بالطبع هذا شىء بسيط . لكن ماذا ستفعل مع خادمتك العجوز ..؟

قلت لها :

ـ سوف أضع لها مخدرا فى الطعام • ضحكت •• قالت قف هنا • اقتربنا من الحى الذى آسكن فيه سوف أذهب وحدى ••

ظللنا جالسين نضع اللمسات الأخيرة على اتفاقنا الجنونى •

أحسست بضربة شديد فوق رأسى • امتدت ذراع غريبة من خارج السيارة • قبضت على عنقى •• حاولت أن ألتقط أنفاسى • دمدم صوت غاضب بالسباب • صرخت دولت ••

ـ اتركه ياحموده ••

كنت أهتز والعربة ترتجف تحتى • كفان خشنان تضغطان عنقى تحشرجت أنفاسى •• كنت أسمع صراخها وسبابه •• لم يتركنى الا بعد مدة • اكتشفت انها قامت من جانبى واستدارت حول العربة وأخذت تجذبه • بعيدا عنى •• هدد ••

ـ لن أتركه الا مقتولا ••

رأيت طوله الفارع • وملامحه الشابة القاسية • كان أكبر منها بقليل لم يكن يبدو على مظهره آنه تلميذ بأى حال من الأحوال •• أمرتنى بصوت حازم ••

ـ انصرف انت .. اذهب حالا ..

ضرب مقدمة السيارة بعنف .

ـ انزل لو كان لديك ذرة من الشجاعة ..

أدرت السيارة ركلها بعنف . حاول أن يمد ذراعه من النافذة وهو يدمدم .. تهرب ياجبان . اعترضته . دفعته رغم قوته البدنية وهو ينصاع لدفعها . بدا جسدها جميلا وغريبا وهو يدافع عنى وصلت للمنزل. وكانت «حكمت» نائمة لحسن الحظ . وحجرتى مغلقة كما تركتها . ورأيت العصفور الوحيدة ساكنة بلا حراك على أرض الغرفة ..

مثل بومة عجوز أنشبت حكمت عينيها فى . قدمت لى شاى الصباح باردا دون أن تلقى على التحية . نسيت هذه العادة أيضا قلت محاولا المرح . جاء الأوان لأتخلص منك ردت بكآبة . لقد تأخر الوقت ولم يعد الزمن يتحرك . مضت . كانت الأرض التى حول منزلى والتى أسميها حديقتى مزدحمة بالورق الاصفر . لاأدرى من أين تساقط . لم أتصور أنه كان يحيط بى ذات لحظة . كان هذا الورق وهو أخضر .. يبدو أن الزمن قد توقف عن السير فعلا لم يبق الا أن تتوقف دقات قلبى وتتساوى أطراف المعادلة . تمنيت أن تمد الشمس ذراعيها

وتدخل غرفتى لكنها بقيت فى الخارج تفمر كل الأشياء التافهة وتتركنى • تساءلت حكمت بسخرية •

ـ ألن تخرج اليوم أيضا ؟••

قلت •••

ـ لو ذهبت أنت فلن أغادر البيت أبدا ••

كنت جافا قاسيا • والموت يأتى متوثبا • قط أجرب غريب الشكل • زائغ النظرات • بلا ذيل تقريبا قفز من الحديقة ووقف على حافة النافذة • لم يستأذننى فى الدخول • تشمم الحافة تحت أقدامه سار ثم رفع رأسه بغتة وبرقت عيناه • لقد اكتشف شيئا • دار بعينيه فى ثقة أخافتنى • قفز داخل الغرفة • نهضت مفزوعا • خشيت أن يختطف روحى ويمضى • كنت عجوزا مثل كل العجائز • أخاف الموت لحد الموت • دار فى الحجرة ثم قفز على حافة النافذة مرة أخرى رأيتها فى فمه • عصفورتى الصغيرة روحى اليابسة التى لم يعد فيها مايؤكل •• أيها القط الماضى الغريب •• ابلغ سيدك انى قد خسرت الصفقة •• وعندما جاءت الظهيرة صرخت فى حكمت بحدة ••

ـ ابتعدى عنى أنت تذكريننى بالموتى •

وقفت أمامى تساءلت بلا مبالاة .. وماذا على أن أفعل ؟.. صرخت ..

ـ انصرفى .. اذهبى الى أى مكان .. لا أريدك فى بيتى .. دعى لى فرصة حتى أتنفس .

قالت ...

ـ أنت مريض بلا شك ..

بعد برهة رأيتها تعبر الحديقة فى هـدوء وتغلق بابها الخشبى ثم تلقى على نظرة كئيبة متسائلة . سارت فى موازاة السور وقدميها تجرش الورق الأصفر وأخذ القط يتقافز فوق السور قادما فى عكس اتجاهها منتشيا بالشبع . وقف فوق حاجز الباب وتطلع ثم تكوم ونام .. وبقيت وحدى .

الساعة تدق فى بطء رتيب . صنابير المياه فى كل أنحاء البيت تقطر . تقريبا لايمر أحد فى الطريق . يوم غريب من أيام المدينة المزدحمة . غرفتى تطل على الحديقة . والحديقة تطل على الشارع وأنا جالس فوق مقعدى . مومياء منسية . أغمضت عينى فحلمت بزهرة الصبار فتحتها فرأيتها واقفة أمام البـاب الخـارجى للحديقة ..

كانت مترددة .. تتلفت حولها وتعاود النظر من

خلال فتحات السور ٠ تقارن بين ماوصفته لها وماتراه الآن ٠ ٠لعل الحديقةأكثر هرما وأشد كآبة مما تصورت٠ ظللت صامتا مدهوشا ٠ كل مرة آراها فيها تعنى مفاجأة غريبة بالنسبة لى ٠ كل خطوة تخطوها نحوى تبدو آكثر مما أستحق ٠ التقتت عينانا فى وميض خاطف مفعم بالمتعة والموت ٠ أزاحت الباب ودخلت تناهى الى صدى خطواتها ٠ قادمة من حلم بعيد ٠ لعل حكمت تركت الباب مفتوحا لم أسمع سواها قادمة ٠ يتم الأمر بهذه البساطة الآسرة ٠ تآتى الى قربانا طازجا لاله شيخ عجوز كف الجميع عن عبادته وكف هو عن الاعتقاد فى نفسه ٠ أحسست بأنفاسها فى الحجرة ٠ حارة ٠ تبدد كل البرودة المتكثفة فى قطرات على الجدران ٠٠ كانت تقتحمنى ٠ تشرخ عزلتى للأبد يحدث كل هذا فى مدة قصيرة كأنه صدمة ٠ لم أجرؤ على ادارة رأسى استدارت هى ووقفت قبالى ٠ رأيت وجهها الوحشى البالغ البراءة كأنه لم يخلق الا ليبعث داخلى هذا الجوع المضنى ٠ وضعت يدها أسفل رقبتى حركتها حتى استوى كفها على لحم صدرى دق قلبى ليرسل خلال أصابعها كل مايقدر عليه من نبضات ٠٠ قالت ٠٠

ــ هل أنت نائم ؟٠٠

ابتسمت فى وهن .. قلت ..

ــ كنت أحلم بك . حين عبرت حجـراتى الخالية وجئت الى . وضعت يدك على صدرى وسألتينى هل أنت نائم .. فقلت .. اننى أحلم بك ..

نهضت . رفعت رأسها وتأملت الجدران العارية .. قالت ..

ــ ياله من بيت رائع كأنه مقبرة شاسعة تسـع كل الموتى ..

ضحكت . انها مقبرتى وحدى وسوف أكون تعيس الحظ حين أموت بعيدا عنها . قالت ..

ــ ألا تريد أن أتفقد أجزاءه .. أريد أن أعرفه .. انت هنا وحدك بالطبع؟

قلت :

ــ اننى أنتظرك منذ ألف عام

جثت على ركبتيها أمامى .وضعت رأسها على حجرى بين يدى . كانت رقيقة كما لم أر رقة من قبل . مسحت رأسها بكفى وظللنا صامتين . استيقظ القط . انتصب وأخذ يرمقنا بحذر قالت ..

ــ انهض لنرى البيت معا ..

بدا كأنها قررت أن يكون هذا بيتها . كنت على

استعداد لان آهبه لها عن طيب خاطـر .. حين جئت أمامي ووضعت رأسها بين يدى كانت هذه لحظة متعتي الوحيدة . والحقيقة لقد ابتهلت في صمت . لم آدر لأى شيء ابتهلت ولا لأى قوى غامضة توجهت لكن هذا تم بين يدى ومضت لحظة المتعة كالبرق الخاطف .. ومابقي هو احتضارات البيت الواسـع . حجـرة قط عجوز مليئة بالطرقات الضيقة والسلالم المتآكلة والغرف السحرية . هذه حجرتي . وهذه حجرة سامية وهذا فراش حكمت .. حكمت من ..؟.. لايهم .. وهذه حجرة لم أدخلها منذ عشرة أعوام . وعلى السلم أمسكت خصرها فاستندت الى السياج وانغرس صدرها في صدرى شفتاها قطعتا مخمل دافيء . انفلتت من بين يدى . جرت . رنت ضحكاتها كالأجراس في المنزل الصامت صعدت للسطح . هبطت . عبثت في كل أزرار المصابيح الكهربية آشعلتها وأطفأتها فتحت الثلاجة وأخذت تلهو بدجاجة باردة . أمسكت نهديها فكانتا جمرتين لينتين . دخلت في شعرها الأشعث أزاحت ضحكاتها الغبار المتراكم منذ عشرات السنين .. لم أكن أدر من أين أبدأ ؟ كيف أستدرجها لسريرى الواسع الذى اصفرت ملاءته من أثر عـرقي

البارد .. هذه معركتى الأخيرة التى لايجدى تأجيلها شيئا . قالت ..

ـ كيف تتحمل الحياة وسط هذه الحجرات الرطبة .

قلت :

ـ انها درجة الرطوبة المناسبة حتى لاتتحلل أنسجتى .

قالت :

ـ لكنه بيت رائع فى حاجة الى فتاة مثلى ..

كان السرير واسعا مثل أرض مجهولة . صرخت بها .

ـ أرجوك لاتفتحى هذه الغرفة .

لم تأبه بصراخى . مدت يدها وفكت أزرار قميصى . قالت .. يالله .. ان شعر صدرك أبيض .. كم يبدو هذا بالغ الاثارة والجمال .. الغرفة معتمة . لم تدخلها قدم منذ سنوات عشر العنكبوت هاجع يصل كل قطع الاثاث بخيوطه . السرير مرتب بارد كأن الجثة قد فارقته للتو كنت أخشى أن ترانى حكمت .. تركتنى أفك حمالات صدرها . آزاحت ثيابها الداخلية برقة بالغة . بدا جسدها مثل سبيكة دافئة من النحاس المصفى . قالت ..

ـ أهذه حجرتها ؟ ..

قلت بتوسل ..

ـ دعينا نخرج .

امتلأ أنفى برائحة الطيب الثقيل والزعفران كنت قد نسيت أو خيل الى انى نسيت . لكنها الآن تعبق أنفى كأن لم تتبدد لحظة واحـــدة .. فتحت دولت النــوافذ فدخلت الشمس كأنصال السكاكين الجارحة . وضعت يدى على وجهى مدت يدها وآزاحتها .. قالت ..

ـ أنت ترى اننى لا آخجل .. لايوجد مايستوجب الخجل ..

ـ أدخلت ســاقها بين ســاقى . أمالت ظهرى على الفراش وانطبع جسدها فوق جسدى . دافئا حنونا قالت ..

ـ كأنك لم تكن متزوجا من قبل ..

قلت ..

ـ اننى لا أريد .

أشعر بالخوف

فتحت الدولاب بعنف . آزت المفصلات الصدئة . تجمعت سحابة من الغبار الخانق قالت ..

ـ هذه ثيابها العتيقة ..؟..

أمسكت كومة من الثياب المعلقة وألقت بها على الأرض .. انفرطت الثياب الغريبة الحائلة الألوان . فرو قديم تحلل فور ملامسته للأرض معطف متآكل الأطراف . وأردية كانت صفراء وكانت خضراء وكانت حمراء .. كنت مبهوتا .. عفن وزعفران وذكريات ميتة وأصابع تنبش القبور . قالت ..

ـ يالها من ثياب ثمينة مثيرة للسخرية .

صدرت من جوف الدولاب خربشات مذعورة قفز جمع من الفئران الصغيرة السوداء المذعورة على أرض الغرفة . هرعت تبحث عن مخبأ آخر . أخذت أتقافز مثل طفل مذعور . أغرقت هى فى الضحكات . جسدها كله فى موازاة جسدى متداخلين تماما أطرافنا ملتفة حول بعضها . واصلت حركتها الناعمة قلت ..

ـ .. يادولت .. يادولت .. لا فائدة .. أنا بارد أكثر مما ينبغى .. وأنت حارة أكثر مما ينبغى .. قالت ..

ـ الرغبة معدية .. أنت بحاجة ماسة لدم جديد ..

لففت ذراعى حولها حتى أحسست بأضلاعها تدخل بين أضلاعى . كانت الطوف الأخير الذى أتعلق به . شفتاها الوحشيتان تقبضان على وجهى تزيلان ماعليه

من تجميدات لعل جلدى يعود مشدودا • شابا • هتفت ضاحكة • هذه أدوات زينتها •• أمسكت حقيبة مستطيلة أزاحت الغبار من عليها فضوت فتحتها بعنف قلت ••

ــ افعلى ماتريدين •• خــذى أى مبلغ •• ولكن ابتعدى عن هذه الغرفة •• أخرجت محتــويات الحقيبة نثرت ســحابة قرمــزية من البــودرة المعطرة • رمت بالمكاحل الفضية ومشابك الشعر الملونة وأصابع الزينة •• والورود الذابلة • كانت تدفعنى للجنون • أحاول التقاط ماتلقيه •• أتوسل اليها •• المناديل المطرزة قطع الدانتيلا المصفرة ثياب الأطفال الصغار الذين لم يولدوا أبدا • البراقع والطرح المشغولة بالترتر ظلت تضغط على تحاول ايقاظ كل الرغبات الميتة • كانت تحتى وكنت فوقها •• أتحرك عاجزا عن السباحة فى مياهها الحارة أخرجت الحــلى وعقــود الزينة • عقــود وأقراط وأساور وخواتم •• نثرتها فى عرض الغرفة وهى تصيح •• انها مزيفة •• كلها مزيفة •• أمسكت الحلى فى فزع •• كانت مزيفة حقا قطع زجاجية ملونة كيف حدث هذا •• أهى سامية •• أم حكمت أم شىء آخر ؟•• جلست دولت أمام المرآة وأخذت تلطخ وجهها بالمساحيق القديمة وتضع على رأسها القبعات المتربة

كانت عارية تماما .. جسدها النحاسى خليقا بالتبتل .
قالت فى دعة ..

ـ دعنا نحاول مرة أخرى .

كانت تمتلك كل هذه القدرات المتناقضة . أقصى حدود القسوة والحنان . حتى الصور آلقت بهـا قالت بسخرية مرة ..

ـ لو أطلت البحث قليلا فسوف تجد رزمة رسائل من رجل آخر ..

.. ضحكت بشراسة فأخذت آقبلها . آذنها ورقبتها قبلت فقرات ظهرها واحدة بعد أخرى تضوع جسدها بين ذراعى عطرا ملتهبا كأنهـا تزينت بالمر والفلفل وكل بهارات الشرق البعيد قالت :

ـ أنا أزداد جوعا بين ذراعيك .

صعدت كل السلالم وهبطت . وقفت على جسدى . داست بقـدميها فوق صـدرى العـارى . بدت طويلة شـامخة تكاد رأسها أن تقارب السقف جسـدها عـار بعيد . ملىء بالزوايا الناعمة . ضخما رغم مايبدو من نحوله داخل الثياب . قالت ..

ـ وهذه صورة ابنتك .. آليس كذلك ..؟.. ما اسمها ؟

قلت ..

ـ سامية

قالت ..

ـ لماذا لم تمارس الجنس معها ..؟..

صرخت فيها .. كفى .. لم أطلب منك المجيء هنا لقتلي .. قالت وهى تقبلنى ..

ـ بل أنا أعطيك فرصتك الأخيرة ..

ضغطت بنهديها فى صدرى .. بعدى لن يلمس جسدك سوى صانع الأكفان ومغسلى الموتى ..

كانت سامية صغيرة ذات ضفيرتين ساذجتين .. صور لكمت .. ولى .. لأناس لاأعرفهم .. لعل بينهم عشيق لزوجتى .. ماذا أفعل ؟.. أدور طويلا ثم أصل للدائرة المغلقة أرتدى ثيابى أم أجمع تذكاراتى أو تواتينى الشجاعة على الانتحار .. وأخيرا قالت بزهق حقيقى ..

ـ .. لافائدة منك على الاطلاق ..

انسحبت خجلا من فوق السرير زحفت على ركبتى وذراعى .. ارتديت أقرب قطعة من ثيابى وأنا أرتعد .. عرى عارى .. وهى مسترخية فوق السرير . ذراعاها مفرودتان . احدى ساقيها ممدودة والأخرى

مثنية . شعرها يغطى الوسادة تطلعت اليها وآنا آحاول أن أغطى مؤخرتى نهضت وآنا آلهث وقفت جوار النافذة لعل هناك نسمة باردة . انتظرت آن تتكلم فلم تفعل مددت أصابعى المرتعدة وضعت عدة وريقات مالية كبيرة جنب الفراش تمنيت أن تخفف قليلا من حدة نظراتها ليس ثمة هواء بارد فى النافذة . البرودة فى داخلى . أتدثر بالثياب العبقة بالعفن والزعفران . كل تذكاراتى ممزقة ومنثورة فى أنحاء المنزل حدقت فرآيت القط يتسلل بحذر من فتحات السور كنت أخشى التطلع للخلف حيث جسدها العارى المتحفز ظلت عيناى متشبثة بالشارع الخالى والقط المقطوع الذيل .. حتى رآيته .. يستدير عند منحنى الشارع ويلقى على البيت نظرة مستطلعة ثم يقف على الرصيف المقابل .. لم أتمالك نفسى .. صرخت .

ـ انه هو ما الذى جاء به الى هنا ..؟..

ابتعدت فزعا عن النافذة . جثوت بجانب السرير نظرت الى مدهوشة . هتفت .

ـ انت الذى قلت له على عنوان البيت ..

نهضت ببطء سحبت عريها من فوق السرير تطلعت من خلال النافذة انعكس الضوء على صدرها وبطنها .

تولدت الرغبة من خلال فزعى .. استدارت .. تمتمت ببطء ..

ـ انه ينتظرنى ..

ارتدت ثيابها أصبحت فجأة غير موجود بالنسبة لها ..جمعت الوريقات المالية ووضعتها فى حقيبتها ،خرجت سمعت صوتها وهى تعبر الممرات وهى تهبط الدرج وهى تتركنى تعبر الحديقة دون أن تلتفت الى أية التفاتة كانت متجهة بكليتها نحوه .. ذلك المدعو حموده .. يقف منتصبا .. ليس مترهلا .. شعر صدره أسود فى أغلب الأحيان . وقفا قبالة بعضهما تحدث وهو يحرك يده فى عصبية لمست هى صدره فى استعطاف أزاح يدها بعنف لم تكن دولت خائفة .. كنت أنا الذى يرتعد . أدار رأسه بغتة فابتعدت عن النافذة ثم عاودت النظر من جديد .. رفع يده وهوى على وجهها بصفعة قوية . فكرت فزعا .. سوف يقتحم المنزل الآن . لم تتراجع .. ظلت واقفة أمامه مالت برأسه واستندت بجبهتها الى ذراعه وسكنت . سكنا سويا . سار .. وسارت خلفه حتى اختفيا عن عينى ..

هذا البيت الواسع مقبرتى لكن متى تأتى اللحظة ..؟.. هيأت أكفانى وحطمت تذكاراتى

صعدت السلالم التي صعدتها . ودخلت الغـرف التي دخلتها . رأيت كل شيء محطما .. الأطباق .. الأثواب . الستائر .. من الذى فعل كل هذا .. أنا أم هى .. أم أنها قوة مدمرة كانت مختبئة فى أركان المنزل . قادنى العطـر العفن الى غـرفتها . رأيت جثتها ممددة على السرير . هيكل عظمى كامل الأعضاء تحـوطه أكاليل الزهور اليابسة يتصـاعد من جـوفه خيط رمادى من البخـور المحترق . جلست صـامتا .. أى نـوع من الصلوات تلوت .. لم أدر ؟ .. وحين أردت الخـروج تعثرت فى الجمـاجم .. تدحـرجت جمجمتها أمـامى ارتطمت هابطـة فوق الدرج درجـة وراء أخـرى . اصطدمت بأرض الصالة فى عنف .. طارت فى الهواء ثم استقرت جنب الجدار . على سريرى كانت هناك قطعة داخلية من مـلابس دولت .. معطرة .. حين فردتها تساقط منها زهر الصبار وطين المقابر ..

فتحت عينى فوجئت بعينى حكمت فى مواجهتى .. كانت تمسك فى يدها قطعة مطوية من القماش حسبت أنها تريد كتم أنفاسى . وضعتها على جبينى . أرسلت البرودة قشعريرة فى داخـلى فاستيقظت . رأسى كلها

مبللة . والوسادة كذلك .. لم يطاوعنى صوتى .. قلت ..

ـ لاتتكلم أيها العجوز الأبله .. أنت تهذى منذ الأمس .. لقد عرفت كل شيء نظرت اليها مرعوبا رفعت قطعة القماش ووضعت أخرى أشد برودة .

لقد وقفت بعيدا .. رأيتها وهى قادمة ثم رأيتها وهى منصرفة .. لم أتصور أن يصل بك الجنون لهذه الدرجة ..

كنت مدهوشا لاننى لم أمت . لقد تعرضت لخدعة أقمت طقوس احتضارى دون جدوى نهضت حكمت من جانبى أخيرا . قالت وهى تغادر الغرفة ..

ـ لقــــد حطمت كــل شيء .. وليتهــــا حطمت رأسك ..

خرجت . كنت ماأزال أحتفظ بسرى تحت الغطاء . قطعة ثيابها الداخلية . أمسكتها بحنان بالغ كأنها قطعة من نحاس جسدها المشدود . دخلت حكمت الغرفة على فترات متفاوتة . تتظاهر بأنها تعيد ترتيب الاشــياء المبعثرة . بنظرة حادة وتخرج . لم آكن آسفا على شيء .. لعلها كانت تعرف ذلك وهــذا مازاد حنقها على . حين حــاولت النهــوض آلمتنى كل عضــلات جسدى .

وقف القط على النافذة يحرك رأسه يشمم فى أرجاء الغرفة لم يكن هناك سوى جثتى ٠ وفى هذه الحالة يستطيع جذبى للخارج بسهولة ٠ كان أجرب مثل سجادة قديمة ٠ متساقط الشعر مثل أشجار حديقتى وحيدا مثلى جاءت حكمت وضربت مصراع النافذة بحنق قفز للخارج أحسست بضربة النافذة فوق رأسى ٠ كانت تود أن أصرخ فتشتبك معى ٠ لم أفعل ٠ لذت بصمتى غير الآسف ٠ وكانت هذه أشد فترات احتضارى سعادة ٠

سمعت ضجة فى الخارج ٠ كانت حكمت تصرخ ٠ وصوت آخر يرد عليها فى حدة ٠ انها دولت جاءت لترانى ٠ لن تستطيع حكمت أن تمنعها ٠ لايستطيع أحد أن يمنعها ٠ فتح الباب ٠ دخلت دولت وهى تلهث ٠ حاولت حكمت جذبها للخارج ٠ استطعت أن أتكلم ٠٠ صرخت فى حكمت ٠٠

ــ اتركيها ٠٠

لم تأبه حكمت بى ظلت تحاول جذبها ٠ لكن دولت كانت الأقوى ٠ دفعتها فى صدرها دفعة قوية ٠ ارتدت حكمت ناحية الحائط ٠ ترددت قبل أن تقوم بمحاولة أخرى ٠ وقفت دولت فى حزم ٠ عاودت الصياح ٠٠

ـ اتركينا وحدنا ..

أدركت حكمت أنها هزمت للمرة الثانية . حدقت في مدهوشة وحانقة . خرجت وقد ارتفعت درجة كراهيتها لكل العالم . أشرت لدولت أن تجلس على حافة السرير .. ظلت واقفة متباعدة . تطلعت هي أيضا نحوى بعداء .. قلت متراجعا لداخلى ..

ـ ماذا تريدين ..؟..

استدارت . اقتربت من النافذة .. قالت بضيق ..

ـ هذا الناظر اللعين .. لقد وقع اليوم قرار فصلى ..

قلت بغباء .. لماذا ؟..

ـ لايهم .. اننى لاأريد أن أفصل .. آتفهم .. لاأريد أن يطبق على هذا القرار .

قلت بنفس درجة الغباء . نفس درجة الضعف ..

ـ وماذا على أن أفعل ..؟..

استدارت . واجهتنى فى شراسة .

ـ انت صديقه . اذهب اليه .. افعل معه أى شىء ..

قلت فى فزع ..

ـ .. مستحيل .. أنت لاتعرفين ماذا تفعلين بى ...

ـ لا أعرف غير أن عليك أن تتحرك . أن تفعل لى شيئا . هل تحسب أنك اشتريتنى بنقودك القذرة ..

لو أنها تخفض من صوتها .. كنت أعرف أن أذن حكمت على الباب .. قلت فى عناد لا قيمة له ..

ـ المفروض أن الناظر لايعرف بعلاقتنا . هذا مهين لى .. كيف أستطيع مواجهته ..

ردت ببرود .

ولماذا لم تتذكر هذا حين وقفت بعربتك فى طريقى مثل أى مراهق ..

توسلت .. اننى مريض .. لاأستطيع الحركة ..

أمرتنى فى اصرار .

ـ بل سوف تنهض الآن وتمضى معى قبل انتهاء وقت الدراسة

كنت أعرف أننى سأطيعها .. لكن الأمر كان مهينا لدرجة لاتحتمل

ـ لاأقدر على مواجهته . صدقينى .. الموت أهون ..

ـ سأنتظرك خارج البيت حتى تفرغ من ارتداء ثيابك

لم تنتظر خلفها وهى تترك الغرفة • سمعت خطواتها تدق الأرض فى ثقة • وحكمت تزوم مثل الكلب تحاملت حتى نهضت • رأيت ظهرها وهى تجتاز الحديقة • وقفت خارج الباب الخشبى جاء القط الأجرب • وقف على حافة السياج بجانبها • أخذت تداعبه ببطء ثم حملته ومضت •

أحسست اننى على وشك السقوط • سرت خطوة وراء أخرى • ثيابى كلها ملقاة على الأرض فى أحد الأركان بحثت عن ثياب أخرى نظيفة فلم أجد • انها حكمت مرة أخرى تناولت الثياب المتسخة عرقا وزعفران وعفنا •• هاجمتنى الرائحة وقفت حكمت عند الباب تتأملنى وأنا نصف عار ممسكا قميصا متسخا •• قالت وهى تتظاهر بالهدوء ••

ـ لقد سمعت كل شيء

قلت ببرود •• توقعت منك ذلك •

ارتديت القميص • أمسكت البنطلون •• قالت بفزع حقيقى ••

ـ أنت لن تذهب ••

ـ هذا شيء لايخصك ··

ضحكت فى هستريا مفاجئة ·

ـ لايخصنى · هذا البيت الواسع الكئيب المفعم برائحة الموتى ·· لقد حملته طويلا فوق كاهلى قبل أن تموت زوجتك ·· وقبل آن تولد ابنتك ··

قلت بنفس البرود :

ـ كل هذا لايعطيك حق التدخل ··

اقتربت · تلون صوتها بنبرة غريبة ··

ـ كيف هذا يحدث · أنا الذى أعددت لك الطعام · وحملت فضلاتك المتسخة وسهرت بجانبك ليالى المرض والحزن ·· ماذا يمكن أن أكون ·· ألا يعطينى هذا الحق فى أن أنقذك ·· ألا أراك تموت أمامى من المهانة ·· لماذا تفعل كل هذا بنفسك ·· انها آصغر من سامية ··

تشبثت بى ··· آحسست بآظافرها تنغرس فى كفى ·· قالت ··

ـ لن تذهب ·· لن أدعك تذهب ··

رفعت يدى ·· هويت على وجهها بلطمة هائلة حتى انها تكومت على الأرض دون آن يصدر عنها آى صوت · توقفت قليلا مترددا · ماذا آفعل ؟·· ثم عدوت خارجا

من الغـرفة ٠٠ هـذه المرآة المجنـونة ٠٠ هـل كانت تحبني ؟٠٠

أخرجت العـربة من خلفية الحـديقة ٠٠ دهست الزرع وأصص الورد التي كنت مفتونا بها بدأت طقوس المهانة في داخلي ٠ اختلط الرماد بالورق الأصفر بالورد المدهوس ٠ كانت دولت واقفة بجانب سـور الحديقة والقط ملتصق بها في تواطؤ خفي ٠ ركبت في عداء صامت ٠ لا جدوى ٠٠ لا جدوى لكنها الرائحة اللعينة تملأ أنفي ٠٠ الشجر عار ٠ والطرق زلقة ٠ والعابرون موتى والسحب جافة والنهر غائض والبيوت نعوش ٠ عز الزعفران وشحت مادة التحنيط ٠ استنجدت بكل أيامي الماضية بمكتبي في الادارة يئز فيه جهاز التكييف على مدار الفصول ٠ بكل الموظفين وقوفا أمامي محنيي الرؤوس ٠٠ بكل الأوامـر الادارية التي أصـدرها والجزاءات التي وقعتها ٠٠ لكنهم تخلوا عني ٠٠ تركوني أدير مقود السيارة وأعبر الشوارع وأحف بسور المدرسة الأصفر الملطخ بفضلات الذباب ٠٠ لم تكن تنظر الى ٠ كنت أرى فقط جزءا من وجهها في المرآة وأحس بهـا بأكملها مرة وحارقة في داخلي أتلوى لعلي أستطيع أن ألدها ٠٠ لعل في ولادتها خـلاصي لقد مت بالامس ٠

وهذا كشف حسابى الأخير .. مزقت حبلى السرى بأسنانى . وغرست الدبابيس فى صدر أمى وفررت . شربت اللبن الصناعى مضافا عليه قطرات طازجة من دم بومة لاتنام الليل أبدا .. فى طفولتى قتلت كل العصافير الدورية . أسقطت كل ماعلى الشجر من زهور حمراء .. وبواسطة سلة صغيرة أحضرت كل الأرواح الشريرة فأخبرتنى بأسرار الطلاسم . شققت النيل بالمسطرة فرأيت القاع مليئا بالعظام العارية المتألقة . أخذت كل شهاداتى العلمية عن مدرسين مصابين بالشذوذ الجنسى . اختبأت وأنا وجرذان المدينة طوال فترة الحرب فى سراديب المجارى العمومية . ومع أول صفارة أمان خرجت رافعا العلم فنلت وساما ترقيت فى وظيفتى على أثر صفقة مع الشيطان . بعته روحى ونلت ترقيتين وعلاوة .. وعندما جاء الطوفان الأول استبدلت جزءا من معاشى واشتريت قمة جبل عال . ثم هبطت بعد انحسار المياه وأكلت البقل والعدس والحنظل وضاجعت بقرة سمارية ضالة فأنجبت طفلا ميتا . قدمته قربانا فنلت درجة المدير العام . وجاء الشيطان يطلب أن ينفذ اتفاقنا فأجلته حتى أستوفى أقساط المعاش . وغالطته فى العد لكنه عاد الى . كانت روحى مثل طفلة ساذجة

لاتــدرى كيف تمت المقــايضة •• ولا عــلى أى شيء تمت ••؟••

نظر الينا الفراش فى حيرة •• نحوى ونحوها •• كان يحاول أن يربط بيننا • أدركت أنه لديه أوامر بمنعها من الدخول •• قلت وأنا أرتعد ••

ـ أريد مقابلة حضرة الناظر ••

أشــار نفس الاشــارة الأولى • سرت على الممشى الرملى • كنت أحاول أن أتقدم خطوة عنها ألا أسير فى موازاتها • لم تترك لى هذه النزوة • رمقتنا عيــون التلميذات المشدوهة • رأيت رؤوسهن الصغيرة الشريرة تميل وتتهامس • ثــم أصــواتهن الجــارحة ترتفــع بالضحكات ••

حجرة النــاظر فى مواجهتنا • رأيته جالسا خلف مكتبه •• منهمكا فوق بعض الأوراق تمنيت أن يختفى بأى طريقة غامضة • تخطينا عتبة الباب • لم أجرؤ على الاستئذان • رفع رأسه مدهوشا حين رآنى • ثم احمر وجهه بصورة مباغتة •• صرخ فى هسترية ••

ـ اخرجى ••

فاجأتنا الصرخة •• تلقتها بثبات • اســتدارت وخرجت وهى تدق أرض الغرفة الخشبية كأنما تعيد على

أوامرها مرة أخـرى . جلس هـو على المكتب رفع يده وغطى بهما وجهه وأنا واقف أمامه كالتلميذ العاصى لم أكن أجرؤ على الجلوس .. همس يحدث نفسه ..

ـ اننى .. اننى لا أصدق

قلت وأنا على وشك البكاء ...

ـ أنا قادم من أجلها ..

قال بفزع حقيقى ..

ـ كفى .. كفى أرجوك . أنت لاتفهم . كيف يمكن أن تفعل بنفسك هذا ؟..

جلست عـلى المقعـد .. كنت أحس بسـاقى مشلولتين ..

ـ أرجوك .. تراجع عن قرار الفصل ..

صرخ

ـ انها فاسدة .. أتعرف ماذا فعلت .. لقد آغوت زميلاتها .. أغوت ثلاثة منهن واستدرجتهن الى احدى الشقق المشبوهة .. هذه شكوى أوليـاء أمورهن .. وشهادة البنات .. انها ....

توقف .. حدق فى مبهوتا كأنما يعيد اكتشافى من جديد .. قال بهمس خائف من قسوة الاجابة ..

ـ هل أقامت معك علاقة ..؟..

هززت رأسى بالايجاب ..

ـ متى ....؟

ـ منذ أن رأيتها هنا ..

ـ مستحيل .. أنت رجل عاقل .. اسمك .. ابنتك .. شرفك ..

هتفت متوسلا ..

ـ أرجوك .. تراجع عن قرار الفصل الأخير ..

قال فى حدة :

ـ لاتقل انك تنوى الزواج بها ..

ـ لاأدرى .. لاأدرى أى شيء .. انها هى التى تقرر وهذا أسوأ ما فى الأمر .

ـ كيف تجرؤ على قول هذا الكلام .. كيف ؟..

ظللنا صامتين لفترة . لم أكن أجرؤ على النظر فى وجهه .. قال ..

ـ لاتوجد قـوة على الأرض تجعلنى أتراجـع عن رفدها حتى جنونك ..

غرقنا فى الصمت المرتبك . كنت أعـرف أنهـا تتسمع فى الخارج .. قلت ..

ـ انك تقضى على .

نهض ـ دار من خلف مكتبه .. حسبت أنه سـوف

يضربني . أمسك كتفي وأخذ يهزني بعنف .. وهو يصرخ ..

ـ أيها الأحمق . أفق ..

قلت ..

ـ لقد أعطتني الكثير ..

قال ...

ـ .. انت في حاجة فقط لشيء من الكرامة ..

هتفت يائسا

ـ لو كنت مكاني لفعلت هذا ..؟..

أرخى ذراعيه . أدار ظهره .. سمعته يتمتم ..

أنا .. أنا .. أنت مجنون ..

احتضنته .. قلت له مؤكدا

ـ لقد أعطتني الكثير . أكثر من هذه المهانة .

سأل وهو على وشك البكاء ..

ـ .. كيف تجرؤ على اتهامي ..

قلت له ...

ـ .. لقد أصبحنا عجائز .. ولقد أعطتني الكثير ..

قال ...

ـ .. أنت تتهمني ..

قلت

ـ اننى لا أتهمك .. بل أتوســل اليك .. ضرب صدرى بيده

ـ أنا ناظر مدرسة .. لست مديرا لبيت دعارة ..

قلت ثائرا ..

ـ فلتكن كما تشاء .. أنا لا أريدها أن تهجرنى ..

قال فى دهشة ..

ـ تطلب منى أن أســاعدك .. ماذا تقــول ابنتك سامية عن ذلك .

قلت .. كأننى أهذى ..

ـ لقد ماتت ــ كلهم ماتوا .. أنا أول الموتى .. اننى أتوسل اليك . أرجوك ماذا يجديك أن تمتهننى لهذه الدرجة ..

صرخ هو أيضا ..

ـ سوف أعيدها .. هذا شيء بسيط .. لكنه لن يغير من الأمر شيئا .. هذا هو قرار الفصل ..

أخــرج ورقة من ملف أمامه ومزقها بحنق بالغ . ارتمى على مقعده وهو يلهث . كنت أنا أيضا ألهث والغرفة تردد صدى أنفاسنا المتحشرجة . لم أجرؤ على قول كلمة أخرى . كنا قد أتينا على كل كلمات التوسل

والرجاء المبتذلة نهضت واقفا رأيت رأسه منكسا ..
ظللت واقفا لفترة فلم يرفع رأسه . سرت متثاقلا .
عبرت الباب . لم أرها . رأيت بحرهن الأزرق يتهامس
ويشير الى والفراش يرفع يده فى تحية فاترة . والعربة
العجوز واقفة . بدا أنها تعطلت عطلها الأخــير رفعت
رأسى فرأيت وجــه حموده فى وجهى كان آمامى حتى
اننى شممت رائحة أنفاسه المختلطة برائحة السجائر .
وكان أمامى حتى اننى رأيت نفسى فى حدقتى عينيه
وكان أمــامى لاننى لم أر يده وهى تتحرك بالســكين
أحسست فقط بالنصل وهو يشق ثيابى .. وينغرس
بسرعة خاطفة فلم أحس بالألم لأول وهلة ..

مغمض العينين . صامتا . يجلس عليوه . وجهه جامد بلا دموع . ولا حتى دمعة واحدة تخفف عن قلبه . كان يسمع أصوات العمال داخل الوكالة يتحركون كالنمل وسط أكداس الحديد الخردة . خليط الأوامر والشتائم . ومساومات الزبائن الصغار . ورغم ذلك كان يعرف أنهم يحاصرونه بنظراتهم .. يحاصرون ساقه الخشبية ، ومظاهر العجز على وجهه ، ولاد الكلب كانوا يعرفون الحقيقة التى فشل فى معرفتها الا منذ قليل . كان هو . عليوة . ساعد المعلم الأيمن . المغفل الوحيد بينهم .

خارج الوكالة كانت ريح الشتاء تزوم . تبكى بدلا منه . بعد ساعة واحدة سوف يأتى المعلم الكبير . ومعه الزبون الأكبر . وسوف يتمان الصفقة قبل حلول المساء ويبقى لحم عليوة مهدرا بلا ثمن ..

سمع صوت أحد الصبيان وهو يهتف به .

ـ معلم عليوة .. تجهز المخزن الورانى عشان الزبون يشوفه ..

انتفض . فتح عينيه فوجد الصبى واقفا أمامه .

يحدثه ببساطة عن المخزن الخلفى وكانوا جميعا واقفين . متناثرين فى أرجاء الوكالة يراقبونه فى فضول . هم الذين دفعوا الصبى للتحرش به .. نهض واقفا وهو يصيح ..

ـ ألف مصيبة عليكم وعلى المخزن الورانى فى يوم واحد الزبون حايروح على المخزن التانى قلت الكلام دا ألف مرة .. يلا غور من قدامى

لم تبد عليهم الدهشة . كانوا يعرفون السبب الحقيقى لثورته . سيرة المخزن الخلفى التى لن تنتهى أبدا . حتى الصبى لم يشعر بالخوف .. ولم يكن فى وسع عليوة أن يعاود الجلوس وسط كل هذه النظرات فقرر أن يذهب .. أن يضيع هذه الساعة حتى يحضر المعلم ..

.. آه يامعلم ياابن الكلب ...

كان الهواء باردا وجسد عليوة يرتجف من شدة الاحساس بالمرارة ضم ثيابه حول عنقه ودق الأرض بعكازه الخشبى حتى ابتعد عنهم دار حول المخزن واستند الى الجدار ثم اكتشف أنه قد بدأ يبكى ..

أخرج من جيبه عصبة الرأس «منديل بأوية» أحمر اللون مطرز بالترتر فرده أمام عينيه فبدت الدنيا حمراء

مترية . كانا معا عندما اشتراه لها من البائع وغمز له بعينيه ومالت عليه فأحس بثديها طريا فوق ذراعه وفى ظلمة السلم أسلمته شفتيها فأحس بالحياة تدب فى ساقه الخشبية وأخذ يأكل وجهها فى لهفة وفى جوع .

تذكر وجهها الصغير الحلو . وتذكر وجه المعلم ورقبته السمينة الدهنية تذكر أصبعه القصيرة وهو يشير اليه ..

«زبون الليلة كبير قوى .. هو الوحيد اللى حايخلصنا من البلوة اللى احنا فيها .. خللى بالك ماتسيبشى الوكالة لحظة» ..

ولكن عليوة كان قد قرر أن يذهب اليها .. عملية «بتر» جديدة ولكنه لن يبكى هذه المرة ..

كان الشارع خاليا ودقات الساق الخشبية عالية يرن صداها فى أعماقه يجسد احساسه المرير بالنقصان وبالخسارة المتكررة . وكانت «نبقة» جالسة فى نهاية الشارع أمام قفص البرتقال مستكينة تحت الريح دون مشتر واحد اقترب منها وأصبح صوت ساقه أكثر ارتفاعا ولم ترفع رأسها .

وقف أمامها كان مازال قابضا على المنديل يأخذ أنفاسه فى صعوبة تأمل ظهرها المقوس المشدود وشعرها

العارى الفاحم السواد وعندما رفعت وجهها بان عنقها وبان جزء من لحم صدرها الأبيض من خلال فتحة الثوب فأحس بالحسرة لان هـذا اللحم قد تحـول الى «جيفة» تنهشها الكلاب رأى نفسه فجأة وهو فى غرفة العمليات والضابط الدكتور يقول له ٠٠ لاتحزن ياعليوة سوف نقطع ساقك لكى ننقذ حياتك قال تمام يافندم ثم أغمى عليـه وكانت الليلة هادئة بدون قصف ولا طـائرات استكشافية ولم يحس عليوة بأنه يخسر كثيرا كما يخسر فى هذه اللحظة وهو واقف آمامها ٠٠

أمسك المنديل وقذف به فوق البرتقال فلم تبد أية دهشة على وجهها ٠ وكانت تعرف ٠ منذ اللحظة التى فقدته فيها وسط بحثها اللاهث وضحكات المعلم اللزجة أن عليوة هو الوحيد الذى سيجده قالت فى بساطة دون أن تمد يدها اليه لتتناوله :

ــ لقيته ؟٠٠

كأنه هو الوحيد الموعود بالسـقوط فى مصـيدة الالغام وزاد من حسرته تلك البساطة ٠ كان فى امكانها أن تبـدى القليل من النـدم ولكنها ظلت جـامدة فى انتظار رد فعله التالى فصاح فى صوت مبحوح :

ــ عارفة لقيته فين ؟

ولم ترد فصرخ بأعلى صوته فى الشارع :

ـ تحت سرير المعلم .. فى المخزن الورانى .. الاستراحة .. تحت سريره يانبقة ..

تذكرت انها بحثت طويلا تحت السرير فلم تعثر عليه مدت يدها وأخفته تحت كومة البرتقال كأنها تريد أن تحسم المسألة وكان عليوة يريد أن يخرجها من ذلك الصمت البارد الذى يقتله جلس أمامها فى مواجهة وجهها الصغير الذى بلله ذات يوم بلعاب رغبته هتف فى حرقة :

ـ دفع لك كام .. هه .. اداكى كام يانبقة ؟

قالت فجأة بلا مبالاة :

ـ أنا مابتعملش معاه بالمرة الوحدة ..

قال بصوح مبحوح : يابنت الكلب يانجسة

رفعت «نبقة» اصبعها فى تحذير :

ـ اسمع ياعليوة .. اللى لك عندى خده وسبنى فى حالى ..

قبض على اصبعها . دهسه بين يديه كأنه يريد أن يكسره .. وصاح :

ـ لى عندك كتير ياناكرة الجميل . كلبة وغاوية كلاب .. دفع كام ؟..

ولكن آلم الضغط لم يخفف من نبرات صوتها :

ـ زى مابيدفع لك بالضبط ؟..

ـ أنا بشتغل معاه .. مابنامش معاه ..

ـ خليه ينام معاك ويبنى فى حالى .

فرفع يده الأخرى وهوى بها على وجهها فى المرة الأولى التى لمس فيها وجهها انتفض جسده كله من النشوة كانا بجانب النهر والشمس ساطعة ولكن المطر الآن بدأ فى التساقط .. و «نبقة» ملقاة فى الأرض تئن فى صوت مكتوم وهو يسبها يقول كلمات غامضة بلا معنى كان يريدها أن تشعر ببعض من الألم الذى يمور بداخله فركلها بقدمه فى جنبها فانقلبت على الجانب الآخر . ولكنها لم تصرخ عندما قالوا له تماسك ياعليوة شاهد صدورهم وأيديهم ملوثة بدمائه فعاود الصراخ بشدة لم يكن الرمل أصفر كان ملوثا بالدم الأحمر والبارود الاسود ولم يكن فى الملجأ أى نوع من المعدات الطبية فأخذوا يسدون جرحه بالخرق القديمة وأخذت الطائرات تواصل الاغارة عليهم ولم تعد الخرق كافية فسدوه بالرمل والبارود ورماد السجائر وتفل الشاى وفتات الخبز وظل ينزف حتى نقلوه الى المستشفى الميدانى ..

أحس عليوة بضربة مفاجئة على ظهره أوشكت أن تسقطه على الأرض وسمع صوتا خشنا وهو يسبه :

ـ ياأعرج الكلب .. عايز تقتل حرمة

وقبل أن يلتفت عرف أنه «مرزوق» المخبر الضخم الذى يفرض سلطته على الجميع ويأخذ اتاوته من كل بائع بما فيهم «نبقة» وصاح عليوة :

ـ مالكش دعوة بينا .. دى .. دى خطيبتى .

هوى عليه مرزوق بالكف وهو يصيح :

ـ من امتى ياأعرج الكلب ؟.. هو مافيش رجالة فى الحتة غيرك ؟

ولم يطق عليوة الضربة فردها اليه .. ولم يتصور مرزوق أن هناك أحدا يجرؤ على الحكومة فأخذ يضربه بقسوة بالغة . واكتشف عليوه أن لمرزوق نصيبا من جسد نبقة وعندما ارتطم جسمه بالأرض وقدم المخبر وركله فى جنبه والمطر يتساقط باردا يدخل جروحه التى تتفتح كل لحظة : حاحطك فى السجن ياأعرج الكلب «وبدأ يجره فوق الأرض وكان عليوة عاجزا عن المقاومة وقالت «نبقة» فى رجاء .

ـ سيبه ياخويا .. سيبه عشان خاطرى ..

ورفعت يـدها بورقة ماليـة مبللة .. فقـال مرزوق :

ـ مش ممكن .. لازم آحطه فى السجن ..

وأضـافت نبقة ورقة مالية آخـرى وهى تتوسل اليه :

ـ ربنا يخليك ياخويا احنا حنتفاهم سوا .. حقك على أنا ..

وانتزع مرزوق النقود وركل عليوة الركلة الأخيرة فى احتقار وقال قبل أن يمضى :

ـ ناس متستحقش تعيش ..

وكان الضـابط الكبير الرتبة هـو الذى قدم له الوسام بنفسه وقال له ياعليوة انت بطل وكان الوسام ملونا عليه نقوش لم يفهم معناها وظل المطر يتساقط وزحفت نبقة حتى أصبحت بجانبه ولمست وجهه المبلل الدامى بأطراف أصابعها وتآوهت فى شفقة :

ـ ماتزعلش نفسك ياعليوة ..

أشـاح بوجهه كان المخبر قد آهانه بقسوة أمامها وعادت تقول :

ـ ان كان على الجواز .. سيبك من حكاية الجواز

دى ياخـويا مش مهم · حانام معـاك زى مانمت مـع المعلم ·

ـ اللى زينا مايقولش لا ياعليوة مش عايزة منك حاجة ·· لا وعد ولا دبلة ولا هدية ولا أى حاجة ·· واللى انت عايزه من جسمى خده ··

شعر عليوه أنه قد ظلم أكثر مما يجب فقال من خلال دموعه :

ـ كان نفسى أتجوزك ··

أخـذت رأسه فى صـدرها · وبـدأت تبكى هى الأخرى ··

ـ بلاش ياخويا ·· هو أنا يعنى مش عايزة ·· بس أعمل ايه ؟ انت واخدنى من الشارع والشارع له أحكامه ··

أذابت مياه المطر الدم وامتلأ الشارع بالغمغمات المجهولة وبلحظات الحب الضنينة تساءل أشبه مايكون بطفل ·

ـ يعنى انت ماحبتيش أبدا ·· أبدا ··

قالت نبقة فى حرارة :

ـ وربنا المعبود حبيتك ·· بس أعمل ايه المعلمين

كبار ومافيش فى قلوبهم رحمة ان كنت زعلان عشان ماأخذتنيش أنا الليلة تحت أمرك ٠

وظلا صامتين ٠ كان يريدها ولكنه كان عاجزا عن توضيح مايريده بالضبط قالت :

ـ ياالله ٠٠ اتكل على الله ٠٠ وروح الوكالة عشان الزبون اللى جاى عشان البيعة تتم النهاردة ٠٠

انتصب فى دهشة والتفت اليها وهتف :

ـ انت عارفة بالحكاية دى كمان ؟٠٠

قالت ببساطة :

ـ أنا اللى جبت الزبون للمعلم ياعليوة ٠٠ انت فاكر الشوية برتقال دول يأكلوا لقمة عيش ٠٠ يلا ياعليوة ٠٠ ربنا يهديك ٠٠

قال فى مرارة :

ـ ياه يانبقة ٠٠ دا انا بكرهك قوى ٠٠

قالت :

ـ وانت عزيز على قلبى قوى ٠٠ وربنا المعبود كل دا كان بجسمى بس ٠

لم يعد يصدقها ٠ لم يعد يصدق أى شيء ٠ كان وجهها مازال صغيرا وعيناها متسعتين ، فيهما بريق غامض واستدار عليوة مهزوما يدق الشارع بعكازه

الخشبى كأنه ينعى نفسه .. وظـل المطر يتساقط فى غزارة ..

عاد الى الوكالة . كان المعلمجالسا فى مواجهة الباب عريضا ـ فخما ـ وبجانبه الزبون رجـلا نحيلا أصفر الوجـه كالموتى يرتدى نظارة سوداء ألقت عـلى وجهه مزيدا من القتامة والغموض وهتف المعلم فى سـخرية وهو يرقب دخول عليوة المترنح من الباب :

ـ شرفت ياأعرج .. كنت فين ؟.. حالنا واقف بسببك .

ووجد عليوة نفسه وقد استكان فجأة استيقظ فى داخله ذلك الصبى الصغير الذى عاش طوال عمره يخدم معلمى الخردة وتحول غضبه الشخصى الى نوع من الذنب عليه أن يخفيه وسمع نفسه وهو يقول :

ـ لامؤاخـذة على التـأخير .. نشرب شـاى على ما المطرة تقف .

وزعق يطلب شايا من الصبى رغم أنه لمح كوبين فارغين وجلس على كرسى واطىء بالقرب من قدمى المعلم الذى قال :

ـ البيه مستعجل وعايز البضاعة قبل الليل .

كيف تحملت «نبقة» هذا الجسد الضخم ؟

وكيف استكانت للمسة الموتى مع هذا الزبون ..

قال عليوة :

ـ خير .. المطرة خير والمخزن مش بعيد عن هنا ..

أمن المحتم أن يجلس هو تحت أقدامه . وآن تنام نبقة فى فراشه حتى تخرج لقمة العيش هكذا صدئة .. بالغة المرارة ؟.

وفجأة تكلم الزبون :

ـ روسى ولا أمريكانى ..؟..

والتفت المعلم اليه فجأة .. وأفاق عليوة من شروده . وحدقا معا فى وجه الزبون الميت وضحك المعلم فى خشونة وهو يقول :

ـ روسى ولا أمريكانى .. آهى كلها خردة الخردة ملهاش جنسية .

ولكن الزبون عاد يقول فى الحاح سمج

ـ هى دخلت الحرب ؟..

اغتاظ المعلم وأسرع عليوة يقول :

ـ سمعونا صلاة النبى

فلم يصل أحد . وقال المعلم متوترا بعض الشىء :

ـ شوف يابيه .. أنت حتشترى حديد خردة من أحسن صنف .. العملية على بعضها عايزة زبون

مخصوص •• والزبون المخصوص مايسألش كثير ••

ورفع عليوة عينيه فرأى «نبقة» وهى تدخل متمهلة من باب الوكالة ثم تقف مستندة الى الجدار • ورفع الرجال الثلاثة أنظارهم اليها •• كانت مبتلة تماما من مياه المطر ولكن المعلم قال لعليوه :

ــ خطيبتك جاية تزورك ياأعرج ••

ونهض عليوة مبتعدا عن قدميه • يكفيه كل هذا الاذلال ليوم واحد • ونظر الى وجه الزبون الذى كان يواصل التطلع اليها •• أتراها نامت معه هو أيضا ••؟ هل كان وجهه ميتا ونظراته مغطاة كما هو الآن •• قال عليوة وهو يبتلع ريقه فى صعوبة •

ــ خلاص يامعلم •• أنا أصلى عرفت كل حاجة ••

وضحك المعلم فى سخرية :

ــ ياأخى اتنيل •• هو أنت تعرف حاجة خالص ؟

وضحك المعلم •• وحز هذا التحدى فى نفس عليوة والتفت الزبون يسأل المعلم :

ــ عليها اشارات ؟••

أهو يقصد جسد نبقة •• هية ؟•• ولكن المعلم رد فى ثقة :

ـ مافيش اى حاجة تدل على نوعها ولا مصــــدرها بقت خردة تخص اللى يشتريها ارتحت ..

ولم تبد على الزبون أية راحة كانت نبقة تتطلع الى عليوة وتأخذ أنفاسها فى صعوبة وآراد عليوة أن يهرب منها ومن الوكالة كلها فهتف :

ـ المطرة وقفت .. نتوكل على الله ..

نهض الثلاثة وأشار المعلم للزبون آن يمضى آولا ثم تبعه وهتف عليوة :

ـ واد ياجمعة .. تعالى معانا ..

وأقبل الصبى راكضا . ووقف المعلم آمام «نبقة» وهو يقول لها :

ـ عايزة ايه ..؟

قالت فى صوت قاطع :

ـ جاية معاكى ؟..

وامتقع وجه الزبون وضحك المعلم ضحكة جافة وهو يسألها :

ـخايفة على عمولتك ؟..

وأحس عليوة بنبراته كأنهـا سـكين والذى كان واضحا أن المعلم لايرفض لها طلبا واحتج الزبون قائلا:

ـ دا كتير يامعلم ..

ولكن المعلم رد فى انشراح حقيقى :

ـ لا كتير ولا حاجة .. دى نبقة واسطة الخير بنا .. هناك أشياء لايعرفها عليوة .. ولن يعرفها آبدا .. لقد دخل هو الاعرج الذى لا حيلة له فى منطقة لايدخلها الا الأقوياء .

وسار المعلم خارجا من الوكالة والزبون بجانبه وظل عليوة مترددا حتى سارت «نبقة» فسار هو على مبعدة منها والصبى بجانبه ..

طرق موحلة معتمة بلا شمس والجو ممتلىء برائحة غريبة . ساروا فى الطريق المؤدى الى خارج المدينة فلم يقابلهم سائر . ورغم المطر الذى توقف كانت هناك أدخنة مازالت تتصاعد من جانبى الطريق . أعشاب متفحمة تمتد فى خطوط متعرجة ومتصلة . وظل الطريق يمتد حتى تكسر الأسفلت واختفى وقال المعلم مبررا ان السيارة لن تسعفهم فى السير فى مثل هذا الطريق وحاولت «نبقة» أن تبطىء من سيرها لكى تكون بجانب عليوة ولكنه احتمى بالصبى الذى كان يهتف فى دهشة .. ياه .. ايه كل الخراب دا ؟. على جانب الطريق كانت هناك بيوت محطمة كأن هناك زلزالا عنيفا أو قصفا بالقنابل الثقيلة قد أصابها . كانت حجراتها

الداخلية تكشف عما فيها من آثاث محطم تبرز من خلال جدرانها عـروق الخشب المتفحمة مثـل آيد متوسلة . وقالت «نبقة» فى صـوت خافت قلت آجى معاك آكون جنبك فلم يرد عليها . لم يعد يصدق أى كلمة تقولها وكان الزبون متوجسا . يعتقد أنه يساق الى فخ ما . وظل المعلم يحدثه ليعيد الطمأنينة اليه وقالت نبقة .. اسمع ياعليوة .. آخذ عمولتى منالبيعة دى .. وذ [illegible] ونروح بعيد .. أنا باكرههم كلهم .. وقال الصبى فجأة أنا أصلى شفتك فى المخزن الورانى فضربته على رأسه ليصمت .

وود عليوة أن يمسك عصا غليظة ويحطم كل هذه الرؤوس . بما فيها رأس نبقة كانت هناك ترعة صغيرة تعترضهم فخلع المعلم الحذاء . وكذلك الزبون . ورفعت نبقة ثوبها فبدا بياض فخـذيها ناصـعا ووقف المعلم والزبون ينظران اليها فى جوع كأنهما لم يجربا طعم هذا اللحم من قبل . وخاضـوا جميعا فى مياه الترعة المعطنة وعندما وصلوا الى الناحية الأخرى استند المعلم على عليوة وأسرع الصبى يمسح قدميه بطرف جلبابه . ثم مسح قدمى الزبون ولبس كل منهما حذاءه وواصلا السير كانت الأرض التى تحيط بهما أرضا بورا تعانى

من عطش عشرات السنين شقوقها متفتحة ولايسكنها الا الفئران تتطلع اليهم برؤوسها الصغيرة دون خوف فوقها تدور الطيور السوداء في دوائر متصلة تترقب اللحظة التي يغفل فيها أى فار لكى تنقض عليه . وقالت نبقة في لهجة فيها بعض المرح المر .. ياسلام عليك ياعليوة لهو انت كنت فاكر نفسك أول راجل عرفته ولا ايه ؟ وقال الصبى فجأة .. اتجوزينى آنا ياست نبقة .. وكان على امتداد الطريق حيوانات ميتة قطط وكلاب وحمير وأحصنة متناثرة وسط الخلاء يحط عليها ذباب نهم وتنبعث منها رائحة كريهة ووضعت نبقة يدها بحنان على رأس الصبى .

وصرخ فيهم المعلم . بطلوا كلام بقى .. خلونى أتفاهم مع البيه وكانت الأرض من حولهم مليئة بالحفر العميقة على أطرافها أكوام من الاتربة العالية كأنها قبور أعدت ومازالت في انتظار الموتى وقالت نبقة في توسل .. يوه ياعليوة رد على ياخويا وصاح المعلم الذى كانت أذنه معهما .. خايفة من ايه يانبقة ؟ قلت لك حيتجوزك يعنى حيتجوزك . وقالت نبقة في تحد . مش عايزاه يتجوزنى . المهم يرضى عنى . قال المعلم

فى سخرية .. هو دا يعرف يرضى ولا لأ وصرخ عليوة فى حدة :

ــ مالكشى دعوة بيه يامعلم ..

فوقف المعلم مذهولا . ونظر الى الزبون فى حرج بالغ ثم هتف :

ــ طيب ياعليوة .. حسابى معاك بعدين ..

وواصلوا السير كان الطريق ضيقا .. مجرد ممر صغير وسط أحراش الغاب التى تنمو على الجانبين كانت اوراقها الخشبية تسبب لهم جروحا صغيرة وأصبح عليوة يسير خلف المعلم الغاضب مباشرة وسارت نبقة بجوار الصبى الذى قال لها .. ولا تزعلى نفسك ياست نبقة والله أنت عجبانى ولما اكبر حابقى راجل ايه يعنى مرة واحدة انا سألت كل اللى فى الوكالة كلهم قالوا ان مرة واحدة مش حتأثر وانتهى ممر الغاب الضيق وبدت الأرض على الجانبين مليئة ببرك الماء الضحلة تتألق على جوانبها بللورات الملح الأبيض المترب وبدا عند حافة الأفق قوس قزح رفيع يوشك على الذوبان تتحرك خلفه السحب السوداء وارتفع صوت المعلم وهو يقول محتدا أوراق ايه ؟ .. اذا كنت حتكسرها ميت حتة .. آنت فاكر نفسك حتركبها .. قال الزبون .. برضه

توريني الأوراق قال المعلم وهو يزفر حاوريها لك بس مش لازم تعرف المصدر .. آه ..دى أسرار شغل وكانت هناك ملاحة كبيرة تعترض الطريق .. توجد عبرها أحجار عالية فوق سطح الماء وتقدم المعلم ثم الزبون وتأخر عليوة بشكل تلقائى حتى عبر الصبى ثم عبرت نبقة وفى منتصف المسافة تعثرت قدماها وأوشكت أن تسقط فى منتصف الملاحة لولا أن عليوة أسرع وأمسك بها نظرت اليه فى صمت لترى عينيه ممتلئتين بالدموع فأدركت كم كانت قاسية عليه .. قالت .. سامحنى ياخويا . سامحنى . وشعر لأول مرة بلمسة من الصدق والحنان فى صوتها .. وود لو يضع رأسه على كتفها ويبكى كل خسارته السابقة وأمسكت يده ووضعتها على صدرها فوق ثديها حتى أحس بحرارته تسرى فى داخله كان مقرورا فزعا ولكن هذه اللمسة هدأت من روعه . والتفت الصبى وابتسم لها .. وظل المعلم مشغولا فى نقاشه مع الزبون .

ثم ظهر المخزن أخيرا فجأة من وسط الفراغ الموحش له نفس اللون الارضى تنمو على جوانبه الحشائش وينام على سقوفه العطن الأخضر وكان من الصعب

الوصول اليه دون دليل كان الانهاك قد أصابهم جميعا وبدت رقبة المعلم غليظة ولامعة من العرق ٠

تقدم عليوة مسرعا وأخرج مفتاحا فتح به القفل الضخم المعلق فى عارضة حديدية ضخمة وسمى المعلم باسم الله ٠ وبدت قوة عليوة الحقيقية فقد رفع العارضة بمفرده وبدا ساعداه مفتولى العضلات وألقى بها بعيدا وجذب الباب الحديدى بشدة فأصدر صوتا مزعجا لان المفاصل كلها كانت صدئة وانكشف جـوف المخـزن المظلم ٠٠ ورغم أضواء النهار فقد قال عليوة :

ــ حالا حاجيب كلوب ٠٠

كان من الواضح أنه لايوجـد منفذ لهـذا المخزن الضخم الا هذا الباب ٠ وعندما غاب عليوة فى داخله انتهز المعلم الفرصة وقال لنبقة على مسمع من الصبى والزبون ٠٠

ــ ماجربناش احنا المخزن دا ٠٠

أشاحت بوجهها بعيدا أدركت انها فى حاجة ماسة الى عليوة ٠ فى حاجـة لأن تسـتبدل الشوارع الموحلة والمخازن الصدئة والغـرف المنزوية ٠ وأيام الرصيف المليئة بالحيرة وحدة المسـاومة والمعلمين السـمان ٠ والمخبرين الخشنين والمهربين والقوادين ٠٠ كل الذين

زحفوا على جسدها طويلا . فى حاجة لان تستبدل كل هذا بحجر صغير تقوم بتنظيفه كل ساعة وتضىء فيه عشرات المصابيح .. كانت فى حاجة الى هذا الأعرج المسكين الذى لايحتاج اليه أحد .

قال المعلم :

ـ الفاتحة قبل ماتدخل

فلم يبال به الزبون . وقرأها الصبى فى استغراق وحاولت نبقة أن تتذكر كلماتها ظهر عليوة على باب المخزن والمصباح يسطع فى يده وقال المعلم :

ـ اتفضل ..

تلفت الزبون حوله فى ريبة فنظر اليه المعلم مستصغرا من شأنه . فتبعه الزبون صاغرا وقالت نبقة لعليوة بود :

ـ عنك انت ..

فأعطاها المصباح ..

كان المخزن واسعا . يرن فيه الصوت بكآبة لم يكن مشحونا بالبضائع كما كان الزبون يتوقع لم يكن هناك الا الشىء الوحيد الذى جاؤوا من آجله ..

الدبابة .. واقفة فى منتصف المخزن تماما تنعكس عليها أضواء المصباح فتبعث فيه حركة غير

محددة كانت الدبابة صامتة مثل كل الدبابات فى لحظات الراحة عليها خليط من ذرات التراب والرمل وبقع الدم وتفوح منها رائحة البارود كان مدفعها موجها الى هدف بعيد وكانوا جميعا أدنى من مستواه تقدموا منها مبهورين حتى الذين شاهدوها من قبل كان لها حضور غامض أشبه بحيوان خرافى عن له أن يرتاح قليلا وسوف يفيق عندما يعرف النوايا المرصودة له ومنذ أن فقدت الاشارات والعلامات التى كانت موجودة عليها لم تعد تنتهى الى أى جانب وربما لاجل هذا أصبحت ارثا مشاعا رفضها المقاتلون فوقعت غنيمة سهلة لتجار الخردة الذين يرثون كل شىء حتى الحروب .. ولم يسأل أحد نفسه .. ماذا سيفعل هذا الكائن الصامت عندما ترتفع المعاول وتضطرم أفران الانصهار . وتتراص قوالب الرمل كالتوابيت ويدفع الحديد ثمن ذلك الكبرياء التعس فيتحول الى ركام من الأشياء المهربة .. كانت الدبابة مازالت متعالية غير آبهة بالمصير الذى ينتظرها ولكنها كانت حزينة ..

خلع الزبون نظارته فجأة وبدت عيناه غائرتان كأنهما ليستا موجودتين .

والتفت عليوة اليه وهو يقول فى حدة :

ـ انت رجلك مقطوعة فى الحرب ؟..

ورد عليوة دون أن يفكر .

ـ أيوه ..

ـ تبقى تعرف ..

ـ أعرف ايه ؟..

ـ دى تبع مين ؟..

ونظر عليوة محرجا الى المعلم ثم هتف :

ـ دى تبع المعلم برعى ..

وأمسكه الزبون فجأة من ذراعه بعنف لم يتوقعه وهو يصيح عليها .

ـ ماتلفش وتدور علينا ..

وتدخل المعلم بينهما ليحسم النزاع ..

ـ الله .. هى بيعة ولا خناقة ؟..

وقال عليوة مدافعا عن نفسه :

ـ أنا كنت عسكرى مشاة حمار .. ايه فهمنى فى الحاجات دى ؟.

وسحب المعلم الزبون بعيدا واتجه به الى الدبابة وخبط عليها وهو يقول :

ـ انت مش يهمك نوع الحديد .. فيه سبيكة أحلى من كده ؟.

وقال عليوة وقد ازدادت درجة توتره :

ـ ملعون أبو دى شغلة اشترى ياعم وخلصنا ولا روح لحال سبيلك ..

وأفاق الزبون فاكتشف أنه أحدث موقفا لا مبرر له وأنه قد نسى الغرض الأساسى من وجوده فارتدى النظارة السوداء وتقدم من المعلم وأخذ يشاركه فى الدق على أجزاء الدبابة وارتاح المعلم لذلك فهتف به :

ـ تعال شوف هنا ..

وبدءا يدوران حول الدبابة وهما يتبادلان الدق والملاحظات ورفع عليوة المصباح فرأى وجه نبقة مضيئا وعينيها متألقتين كانت تنظر اليه فى اشفاق وتمنى لو يستطيع أن ينسى وأن يرحل معها بعيدا ولكنه كان يدرك وانه مثلما حدث لساقه .. بترت نبقة من قبله جزءا لايمكن تعويضه .

كان المعلم والزبون قد توصلا سويا الى اتفاق يسوده قليل من الود الحذر ..

قال الزبون :

ـ امتى نقدر نشيل ؟

قال المعلم :

ـ خد انت احتياطك واحنا تحت آمرك .

وقال الزبون :

ــ على خيرة الله ..

وفجأة أمسك الزبون «الجنزير» وبقفزة واحدة أصبح فوق الدبابة ونقر فوق برج الدبابة وهو يتساءل ..

ــ فيه حاجة جوه ؟.

قال المعلم بغلظة وقد اكتشف أن الزبون عاد للتردد مرة أخرى ..

ــ لأ ..

ولم يبال الزبون بالغلظة وعاد يسأل :

ــ لا قذائف ولا مواد ملتهبة ولا حاجة ؟..

ــ يوووه .. قلنا لأ ..

ثم التفت الى عليوة ليؤكد كلماته وسأله :

ــ فيها حاجة الهبابة دى ياعليوة ..

ولدهشته الشديدة فوجىء برد عليوة السريع :

ــ الحقيقة يامعلم احنا مافتحنهاش ..

فانقلبت نظرته وأصبحت بلون الدم وأدرك أن عليوة قد أصاب من الصفقة مقتلا .. وصرخ فى غيظ ..

ــ وبعدين فى اليوم اللى مش حيعدى على خير دا ؟.

قلنا ياسيدنا البيه الدار أمان .. يعنى فيها ايه .. قنبلة ذرية ..

قال الزبون فى نفس البرود :

ــ دى دبابة يامعلم .. وخارجة من حرب .

ــ يعنى عايز ايه ؟.

ــ الأصول .. حد يفتحها ويدخل يبص بصة .

وقال المعلم مهددا .

ــ أنا بصراحة النــاس الكبــار اللى ورايا مهتمين بالبيعة دى .. ومش حايعجبهم الاسلوب دا أبدا ..

وقال الزبون دون أن يأبه بالتهديد :

ــ أنا ماطلبتش أكثر من أصول الشغل ..

وصاح المعلم : يلا ياعليوة .. افتحها له خلينا نخلص ..

وهتف عليوة .. انا ..

صاح فيه الضابط تقدم ياعليوة فتقدم وكانت الصحراء نائمة والرمل ناعم كوجــه طفل وقف الجنود كلهم خلفه يترقبون خطواته تأمل الصخور والتضاريس التى تبدو كمن لم يمسها بشر وشم الهواء فلم تكن هناك رائحة ولم تكن هنــاك أية عــلامة فى السماء البعيدة ولا على حافة الأفق . وضع عليوة قدمه اليمنى ليسير

خطواته الأولى فانسرب الرمل ناعما من تحت حـذائه الغليظ وارتكز عليها بثقل جسمه فلم يحدث شيء وظلت قدمه الأخرى معلقة فى الهواء .

كان يحمل مدفعا فى يده اليمنى ثم وضـع قدمه اليسرى فلم يحدث شيء كان كل شيء صامتا ساكنا هو وحده الذى يتحرك وأحس بقطرات العرق وهى تتدحرج من على قفـاه لتلسعه فى ظهره كانوا جميعا قد عبروا فيافى من الرمـل والكثبـان والجثث المحترقة من آثار النبالم والمركبات المحطمة والجرحى بلا عون والمصابين بالذهول من شدة الضرب ولكنه لم ير أرضا بمثل هـذا الانبساط ولا بمثل هذه البراءة رفع قدمه اليمنى ثم وضع قدمه اليسرى ودوى الانفجار هائلا ووجد نفسه يبتعد عن الأرض كأنه لن يعود للمسها مرة أخرى ..

فصرخ :

ـ لأ يامعلم كله الا كده . أنا جتتى مش خالصة ..

وصاح فيه المعلم :

ـ انت ايه حكايتك ياعليوة انت بتشتغل معايا ولا مع الأفندى

حتطلع تشوف الدبابة ولا لأ ؟.

قال عليوه :

ـ مش طالع • آنا دخلت الحرب وخلاص •• هى كل حاجة لازم آخذها بالدم ••

وضرب المعلم كفـا بكف ونظر للزبون فاستقبله ببروده •• وعاد المعلم يلتفت مرة أخـرى الى الصبى وهو يهتف به :

ـ وله ياجمعة •• اطلع افتح برج الدبابة وادخل •• حأديك أجرة أسبوع زيادة •

وتدخلت «نبقة» فى هلع وآمسكت كتف الصبى :

ـ حرام عليك يامعلم ••

فصرخ المعلم وقد ازدادت درجة حنقه :

ـ حرمت عليكى عشتك •• تطلعى انتى بداله ••

والتفت الى الصبى وقال محرضا :

ـ انت مش راجل ياوله ؟• ولا حتعمل حرمة زى عليوة •

قال الصبى فى قوة :

ـ أنا راجل يامعلم ••

وأنزل يد «نبقة» من فوق كتفه وقال فى صوت خافت :

ـ أنا راجل ياست نبقة ••

وتحرك الى الدبابة ورفـع عليوة رآسـه فالتقت

عيونهما وفكر عليوة لو كتب لهذا الولد الحياة فسوف يشــق طريقه كالسكين الحــامى وكانت الدبابة عالية فذهب الى مؤخرتها وتعلق بالجنزير «وأخذ يحاول بيديه وقدميه حتى صعد فوق الحاجز المعدنى وزحف على بطنه حتى أصبح فى مواجهة البرج ووقف وهو يلهث وبدأ الخوف يتسلل الى قلوبهم والصبى واقف هكذا بجسده النحيل فوق الجسد المعدنى الضخم .

تراجــع المعــلم والزبون ونبقــة الى الوراء حتى التصقوا بجدران المخزن وبقى عليوة واقفا وحيدا فى مواجهة الصبى كل منهما يشهد الآخر على ماسيحدث كان عليوة يحسب أن الصبى الصغير الذى تعذب كثيرا فى داخله قد ذهب ولكنه الآن بجانب برج الدبابة يتجه اليه ويحاول فتحه .

فى البداية رفض باب البرج أن ينفتح كأنه يمنح الصبى فرصة أخيرة للتراجع ولكن لم تكن هناك فرصة انفتح الباب محدثا صوتا مزعجا وانتفض قلب عليوة وبدت عينا الصبى واسعتين وهو ينظر داخل الدبابة ثم رفع طرف جلبابه وانزلق فى داخلها وأحس عليوة بغصة فى حلقه وأغمض عينيه وأخــذ يتمتم ببعض الأدعيــة القديمة وظل الصمت مخيما على المخزن فى انتظار صوت

الانفجار ولكن الانفجار لم يحدث .. تأوه الصبى فقط في ألم وسمع صـوت التأوه واضـحا ثم أطل الصبى برأسه شاحب الوجه جاحظ العينين وهو يتنفس بصوت مبحوح :

ـ فيه واحد ميت

فصرخ عليوة .. يانهار اسود .. يانهار اسود .. وأخذ يتقافز بعكازه وأمسك «زير» ثم قفز فوقها وأوسع له الصبى مكانا فانزلق داخلها وهو يرتجف كانت رائحة العفونة ثقيلة . ولمست يده أول مالمست الخوذة المعدنية الباردة فأحس بحرقة قاسية ومد أصابعه الى البذلة «الكاكى» المنتفخة ، فسمع صوت العظام الهشة وهى تتكسر بداخلها فهتف ياخويا .. لم يكن يرى أى ملامح في الظلام . يعرفه من بين عشرات الرفاق الذين ألقوا عليه بالسلام ورحلوا . ودورية التمام في منتصف الليل . ونداء البورى بعد سهرة من أرق الانتظار . الذين تقاسموا معه الخوف والسيجارة والطعام الردىء والحلم باجازة قصـيرة تتوجهـا نزوة جنسية عابرة . «ياخويا .. جسمك بقى للبيع ياخويا» ..

.. كانت الدبابة ممتلئة بالغمغمات .. كأنها كلمات التشهد الأخيرة واكتشف الصبى أنه لم يكن عاجزا

عن البكاء فأخذ يبكى فى حرقة «هو انت كنت تعـرفه يامعلم عليوة ؟ •»

واحتضن عليوة البذلة الكاكية بما فيها من عظام وأخذ يصعد •• رغم أنه كان يسمع صوت تكسرها وظل يواصل الصعود • وقف أمامها على حـافة الدبابة كان يحمله مثل ذنب لايغتفر كانوا قد اقتربوا قليلا ولكنهم حين رأوه عاودوا الابتعاد •• هبط من فوق الدبابة كان هادئا تماما وصعد الصبى الى حافة البرج وهو يمسك الخوذة فى يده •• وقال عليوة :

ــ اشترى يامعلم •• تشترى بكام ••؟••

وبلع المعلم ريقه كان وجهه قد أصبح شاحبا وجف العرق من على رقبته •• ثم قال :

ــ ادفنه ياعليوة •• اعمل معروف ادفنه شيله من قدامى ••

وانتفض عليوة كأن داخله يمور بغضب أعمى وقفز على رقبة المعلم وهو يصرخ :

ــ أدفنه ؟• أدفنـــه ياولاد الكلب ؟• انتم ايه •• فاكرين الحرب خلصت خلاص •

أحس المعلم بقوة عليوة بأصابعه وهى تلتف على عنقه السمين فصرخ :

ـ رقبتى ياعليوة .. رقبتى ..

كان عليوة يواصل الضغط وهو يهذى كالمجنون

ـ أدفنه يابن الكلب هى الحرب خلصت عشان أدفنه ؟.

لم يحاول أحد أن يمنعه ظلت نبقة واقفة وتسلل الزبون متجها الى الباب وظل الصبى واقفا فوق البندقية ممسكا بالخوذة يتطلع نحو بقايا الجثة المهشمة وعيناه ممتلئتان بالدموع .

أغسطس ١٩٨٣

لليل رائحة الخبز الطازج ..

حدقت «سعيدة» فى أضواء المطار ..كانت صفراء ساطعة كأنهــا أرغفــة الخبز الشمسى . ابتسمت وهى تقول لنفسها فى همس :

ـ والله ريحتك حلوة يامصر ..

ورغم ذلك كان هناك شعور خفيف بالغثيان . وظل هذا الشعور يلازمها حتى بعد أن توقف الأتوبيس عن الاهتزاز . كانوا فى منتصف الليــل ، والركاب ذوو الوجوه المتعبة يهبطون فى صمت ، يحملون على أكتافهم، وفوق ظهورهم حقائب ثقيلة مربوطة باحكام ..

استدار السائق فى مقعده . ووقف المحصل بجانبه كان السائق قد لمح عينيها فى المرآة الأمامية ، وأوشكت عجلة القيادة أن تفلت من يده . وشعر المحصل بحرقة . كان يشع منها وهج غريب . تتناثر ذراته وسط عتمة الأتوبيس ورطوبة الليل . وكانت «سعدة» تحاول ايقاظ الغلام النائم بجــانبها . استيقظ ووقف وهــو يفرك عينيه بظهر يديه . حمل اللفافة التى كانت معهما ونزل

أولا • واقتربت سعدة منهما فشعرا بالدفء حين ابتسمت وقالت :

سا الخير عليكم •

كانت تحمل فى يدها جواز سفر • فشعر كل منهما بالحزن • أحسا أنهما لن يقدرا على قيادة الأتوبيس مرة أخرى حتى يقوما بالرحلة الأخيرة قبل الفجر • وقال المحصل فى حسرة :

ــ دى مسافرة ••

ووضع السائق يده فوق جهاز التنبيه فارتفع صوته عاليا • التفتت «سعدة» فى خوف ، ولكنها حين لمحت وجهيهما يطلان عليها من خلف الزجاج ابتسمت ابتسامة ساطعة • وضغط المحصل على كتف السائق فى امتنان «يكفيهما أنهما ظفرا بهذه الابتسامة» •

كان هناك مسافرون كثيرون بالنسبة لهذا الوقت من الليل • ولكن الشرطى الذى يحرس الباب الرئيسى كان نائما • يجلس فوق الكرسى واضعا البندقية بين ركبتيه ، ورأسه مائلة على جنب حتى ان غطاء الرأس كان على وشك السقوط • وحين مرت سعدة بجانبه ابتسم ، ولابد أن حلما قد عبر مخيلته فى هذه اللحظة •

كان هناك أيضا الكثيرون من المنتظرين والنائمين فى

القاعة الرئيسية . وتوقفت «سعدة» مبهورة . كانت القاعة كبيرة وممتدة . مليئة بالأبواب ، واللافتات ، واشارات التحذير ، والرجال ذوى النظرات المستريبة . قالت فى حيرة :

ـ والله ما انا عارفه أروح فين ؟..

وفجأة دبت فى القاعة حركة غريبة . جاءت سيارات مسرعة وألقت برزم من الصحف الجديدة . كان حبر الصفحات الأولى لم يجف بعد . والاخبار قد تداخلت . وارتفعت مكبرات الصوت تعلن عن وصول كل الطائرات المتأخرة . واستيقظ النائمون على المقاعد ، وأخذوا ينفضون الغبار من على ثيابهم . واشتعلت المصابيح نصف المحترقة فى تألقها الأخير . وأخذ موظفو الجوازات يدقون أختام الدخول والخروج فى جذل . وتقدم حمال محنى الظهر . أمسك لفافة «سعدة» ومسح تراب السفر من عليها وسار فسارا خلفه . كانت هناك بوابة حديدية أخرى يقف عليها شرطيان . توقف الحمال وأشار لها بالدخول . بحثت «سعدة» فى جيوبها بحثا عن أى نقود ، ولكن الحمال سلمها اللفافة وتراجع وهو يقول فى خجل :

ـ بالسلامة .. بالسلامة ..

ورفع الشرطى الواقف على الباب يده وهو يقول :

ـ مين مسافر ؟.. التذكرة والجواز ..

وقدمتهما «سعدة» فأعطاهما لرجل يجلس خلف منضدة خشبية صغيرة فأخذ يقلب فيهما بريبة بالغة . أشار للغلام وهو يقول : ودا ؟.. قالت سعدة : بيوصلنى . قال الرجل :لغاية هنا ممنوع . وتراجع الغلام وهو يقول :

ـ خلاص أنا .. مع السلامة ياسعدة ..

ووضعت سعدة يدها على رأسه . أدخلت أصابعها فى شعره وقالت :

ـ مع السلامة . سلم على كل الناس اللى فى البلد .

ورفع الطفل ذيل جلبابه ، وأمسكه بأسنانه ، ثم أخذ يعدو مبتعدا . وظلت تراقبه حتى اختفى فى الظلام خارج المطار . وانتابت الرجل حالة نادرة من حالات المودة فسألها :

ـ أخوكى ؟..

قالت وهى تمسح دمعة صغيرة من طرف عينيها ..

ـ لأ .. من البلد ..

ونظر الرجل فى اثره . كان الطفل صغيرا جدا على

مثل هذا المشوار ، فى مثل هذا الوقت من الليل • قال فى استغراب :

ـ حيرجع ازاى ؟••

هزت سعدة كتفيها فى بساطة :

ـ حيركب فوق ضهر القطر •• احنا جينا كده ••

ومد الرجل يده لها بالجواز • وحين أخذته لمست أطراف أصابعه أطراف أصابعها • أحس بقشعريرة • هواء الليل ولاشك • ترى ماذا سيكون شكلها تحت ضوء النهار • تذكر أنه لم ير وجه الناس تحت ضوء النهار منذ زمن بعيد ، وأنه يشرب الكثير من أكواب الشاى والقهوة ، ويحرق عشرات السجائر ، ويراقب قائمة الممنوعين ، ويومىء فى السر لأمين الشرطة •• يفعل ذلك كله كأنه يعانى من كابوس لاينتهى • تمنى لو أن اسم هذه الفتاة كان فى القائمة • لو أنه يستطيع أن يمنعها من السفر لأى سبب • ولكنها مضت مبتعدة • كان قد تعود بعد أن مارس العمل فى الليل على أن يرى الكثير من الأشياء الجميلة ، خاصة فى ساعات الليل الأخيرة • وفى لحظات الوحدة الممضة ، وفى آخر الشهر •• ولكنها دائما كانت تبدو •• تذوب وسط ذرات الليل •

وضعت سعدة اللفافة فوق الميزان فلم يسجل شيئا وكان الصف طويلا أمام ضابط الجوازات • وقفت فى مؤخرة الصف ولكن شخصا ما مد يده ، وأخذها ، وأوقفها أمام الضابط • كان مشغولا ، منكفئا على الجوازات يفر أوراقها بسرعة ، ثم يختار ورقة فارغة ، ويضع عليها الختم عندما رفع رأسه فى نظرة عابرة فرأى «سعدة» ، فظلت يده معلقة فى الهواء • وابتسمت سعدة فى تودد •• ولكن وجه الضابط ظل جامدا • كأنه رآها فى مكان آخر قبل الآن • فطن الى آن الجميع ينظرون اليه ، فأنزل الختم ، وآزاح الجواز الذى كان مفتوحا أمامه ، فهتف صاحبه محتجا :

ـ ختم الخروج يابيه ••

ولكن الضابط طوى الجواز فى عصبية ، وهتف به :

ـ بعدين •• بعدين •• آقف فى آخر الصف •

وقال الرجل فى احتجاج منكسر •

ـ آخر الصف ••

ورمقه الضابط بنظرة غاضبة • فرمق الرجل «سعدة» بنظرة أكثر غضبا • وعاد الى آخر الصف • كان الضابط عصبيا لدرجة أخافتها • وفكرت أن تعود

هى أيضا الى آخر الصف ، ولكنه هتف بها :

الجواز ٠

أعطته له صاغرة ٠ قلب أوراقه بسرعة ، وقال وهو يأخذ نفسا عميقا :

ــ حاتشتغلى ايه هناك ؟٠٠

قالت سعدة مستغربة :

ــ فين ؟٠٠

ــ حيكون فين ٠٠ فى الخليج ٠٠

قالت سعدة فى استكانة :

ــ الله يعلى مراتبك يابيه كمان وكمان حاشتغل أى حاجة ٠

ولكن الضابط أحس أنها تحاول خداعه فهتف غاضبا :

ــ أى حاجة ازاى ٠ لازم فيه حاجة ٠٠ معاكى عقد ؟٠

وفتشت سعدة فى الأوراق الموجودة فى جيبها ، وأعطت للضابط ورقة مطوية ، وقد بدأت تشعر بالخوف ٠ قرأها بسرعة ثم ألقاها فى اهمال وقرف وصاح :

ــ دا عقد دا ٠٠ شغالة ٠٠ هيه ٠٠ شغالة ٠٠

ونظرت سعدة الى الناس مبتسمة ، و الى الضابط متوجسة ، و قالت :

ـ أكل عيش يابيه .. ربنا ..

ولكن غضب الضابط الجامح لم يترك لها فرصة للاسترسال فصاح مقاطعا :

ـ تشتغلى هناك ليه .. ليه .. ليه مش عندى ..

وفوجئت سعدة بالاقتراح . وبدا أن الضابط قد فوجىء باقتراحه أيضا . حاول أن يتلافى ذلك فأشار للصف الطويل الواقف أمامه وهو يهتف :

ـ أو عند أى حد من الناس دول ..

ولم يكن يعنى ذلك . قالت سعدة فى توسل :

ـ ربنا يخليك يابيه .. دا انا دقت المر على ما بال ماجانى العقد دا ..

دق الضابط المكتب الذى أمامه . أوشك أن يهشم الزجاج . لم يكن فى جوازها شىء غير عادى . جواز جديد بلا خدش واحد . وتأشيرة دخـولها البلد الآخر جلية واضحة . ولكنه كان يريدها . سوف تقيم زوجته الدنيا وتقعدها عندما يعود الى البيت . وسوف يتسلل اليهـا فى الليلة الأولى من نومها فى غـرفة الأولاد . ويقص القصة كاملة فى وردية الليل التالية . سيلمع

النجوم • وينظف الحلة الرسمية عنــد «اللوندرى» ، ويتفاوض مع كل المهربين • ويعرض عن كل المضيفات• ويؤدى له كل النجوم التحية الكاملة • وهتف بها للمرة الأخيرة :

ـ حايدوكى كام •• هيه •• هنا أحسن لك ؟••

ولم تتكلم ســعدة • اســتنفدت كل مالديهــا من توسلات • كان الصف الواقف يحدق فيهما بوجوه جامدة لاتحمل تعبيرا • كانوا بشكل أو بآخــر أجراء مثلها • يمسكون جــوازاتهم الخضراء ، وينتظــرون فى صمت كئيب • وصرخ فيها الضابط :

ـ يعنى ايه •• مابتتكلميش ليه : • يعنى أقبض عليكى ••

وشهقت «ســعدة» فى خــوف • كانت على وشك البكاء • وابتعد الشرطى الواقف بجانب الصف خطوة حتى لايلاحظ الضابط جوازها وهو مازال يصيح :

ـ حيضحكوا عليكى • وشرفى حيضحكوا عليكى • وحايسلفوكى لبعضهم كمان •• اللى تعجبيه حايديكى لصاحبه • وابقى تعــالى قوليلى شــغلنى •• بشرفى لما ترجعى ماحتساوى نكلة •• اتفضلى ••

وأهوى بالختم على الجواز فتحول الختم الى بقعة غير

منتظمة من الحبر الأسود • ألقاه اليها فى غيظ فاحتضنته فى صـدرها ، ومضت مسرعة دون أن تـدرى الى أين تذهب • أشار لها أكثر من شخص على أكثر من اتجاه • كانت الأرض لامعة • والبوابات متشابهة • أشار لها الجندى أن تمر من خلال جهاز التفتيش ، وفجأة آخـذ الجهاز يطن بشكل متواصل • وتركها الجميع ، وأخـذوا ينظرون للجهاز فى استغراب • كان معطلا منذ سنوات طـويلة ، ولكنهم لم يكونوا يـريدون من الركاب أن يعرفوا ذلك • ولكنه الآن يطن بقوة كأنه يعوض أيام العطل القـديمة • وأخـذت تظهر على شاشته المضيئة أشكال غريبة • • كأنها طيور أو أسماك • • أو مجـرات سابحة • • خطوط ودوائر ومثلثات • • وابتعدت كثيرا ، ولكن الجهاز ظل يطن ، وضربه الشرطى الواقف بجانبه فى عنف وغيظ ، فسكت فجأة وانطفأت الشاشة ، وساد الصمت •

كانت ماتزال حائرة ، ومكبرات الصوت تصرخ ، والطوابير تتراص أمام الأبواب • وكل طابور لجأت اليه لم يكن لها • كانت حزينة ومنكسرة • أحست فجأة بتعب السفر المتواصل • عبر مخاضات الترع ، والمصارف ، وفوق ظهـور الحمير ، وعلى سـطح القطار ، وفى زحام

الأتوبيسات ، وانقلاب النهار الى ليل ، والتراب الى أسفلت ، والأدعية الى كلمات جارحة . وللمرة الأولى أحست بالتردد نحو بقية الرحلة . لم تدر أى مواصلات أخرى عليها أن تركبها . وأى اهانات سوف تتلقاها . ولكن حين دوت مكبرات الصوت من جديد نهضت . وقفت فى الصف الطويل . ركبت الأتوبيس الواسع نهض فلاح شاب كان يبدو عليه أنه أكثر ذعرا منها ، وعرض عليها الجلوس فى مكانه . فغدت لمصر رائحة الخبز الطازج . وأصبحت أعمدة الضوء شاحبة وعلى وشك الانطفاء . صعدت على سلم الطائرة المعدنى . ابتسمت لها المضيفة عند الباب فلم تجد فى نفسها القدرة على مبادلتها الابتسام . جلست بجانب النافذة ، وظل المقعد الذى بجانبها شاغرا . نظرت للظلام خارج الطائرة . ترى هل استطاع الغلام الصغير أن يجد طريقه وسط طرقات الأسفلت المتشابهة ؟ أغمضت سعدة عينيها فنامت ، وكانت متعبة فلم تستطع أن تحلم .

اهتزت الطائرة فاستيقظت «سعدة» . وجه المضيفة وهى تبتسم . كانت الابتسامة قريبة جدا من وجهها فابتسمت . أشعلت الطائرة كل أضوائها وتراقصت المؤشرات فى غرفة القيادة ،وفك الركاب الأحزمة ،

وانطلقوا فى صخب محموم فى طرقات الطائرة ، يشربون المياه الغازية ، ويتحدثون عن الأيام الماضية . وأخذ صعيدى ذو صوت مشروخ يغنى : يابو العيون السود .. ياللى جمالك زين فأسكتته احتجاجات الجميع . كانت الطائرة تخترق سماء مظلمة لاتوجد فيها آى ملامح . استعادت «سعدة» سعادتها . ونهض الصعيدى وأصر على مواصلة الغناء . وبعـد مقاومة . وافق البعض وسد البعض آذانهم ، وارتفع صوته المشروخ فوق صوت محركات الطائرة . اكتشفوا أن فى صوته بعضا من الجمال ، والكثير من الأسى والحنين : امتى الزمان حيعود .. ونرجع سوا الاتنين .. وضحكت «سـعدة» بصوت عال ، فقالت لها المضيفة :

ــ ياه .. دا انتى ضحكتك حـلوة قوى .. مش بتضحكى كثير ليه ؟..

وغابت المضيفة . وكفت سعدة عن الضحك لأنهـا اكتشفت أن وجه الشاب الفـلاح يطل عليها من خلف مقعده . نفس الفلاح الذى تنازل لها عن مقعده . وجهه مشدود ، مغطى بالعـرق . حدقت سـعدة فيه بمرح ، فأدار وجهـه فى خجل . عادت المضيفة ومعها مضـيفة أخرى وقالت لها :

ـ شفتى .. هى دى البت اللى قلت لك عليها ..

وابتسمت سعدة وهى تقول :

ـ قلتها ايه ياست هانم .

وضحكوا جميعا . وعاد الفلاح ينظر . وارتفعت عقيرة الصعيدى بالغناء . ومرت الطائرة فى مطب هوائى فارتج الجميع فى نشوة مفاجئة : وقالت المضيفة الأولى :

ـ أنا جبت لك هدية صغيرة .. خدى ..

وأخرجت من جيبها اسطوانة طويلة من الورق المقوى . تناولتها سعدة فى دهشة ، وأخذت تقلب فيها . وانصرفت المضيفتان ضاحكتين . اكتشفت أن أحد طرفيها مسدود . والطرف الثانى له عين زجاجية . رفعتها سعدة وأخذت تنظر فيها . كانت جدرانها مكسوة بالمرايا المتقابلة بينها قطع صغيرة ملونة . ومن خلال هذا التمازج كانت الاسطوانة تصنع فى كل حركة من حركاتها عشرات الانعكاسات . نظرت سعدة فرآت خطوطا خضراء تتقاطع وتتمدد وتتداخل كأنها حقول متشابهة تفور بالخضرة والنضارة . أحست سعدة بالريح الرخية وهى تهب ، والحشرات وهى تطن . والعروق العطشى وهى تنتفض فى لحظة الرى . وخيم على كل شيء صمت لايليق الا بتفتق البراعم . وأدارت سعدة

الاسطوانة فتشابكت الخطوط الزرقاء · تداخلت الترع النحيلة الضحلة والمصارف المالحة ، لكى تكون رياحين مترعة ، تخترق أحضان الجبال والجزر الرملية ، لتصب كلها فى بحر النيل الذى لايمتلىء ولا يفيض ، ولا يرد عطشان ، ولايبتلع غريقا · ولا يرضى ــ الا مرغما ــ بنوم الجوعى على ضفافه · آدارت سـعدة الأسـطوانة فتداخلت الألوان · وجرت بنات القـرية فى ثيابهن الملونة وأكفهن المخضبة بالحناء · ونقنقت الدجاجات · وأكلت الماعز كل الأوراق القـديمة · وأدارت سـعدة الأسطوانة · كتلة البيت الطينية تحت النخيل ، وبقعة سوداء حيث تجلس أمها ساكنة تنتظر · وبقعة حمراء حيث الشال الأحمر الذى استعارته من صديقتها لتسافر به ، وتحضر لها أحسن منه · وبقعة صفراء حيث كومة القش التى انسربت اليهـا ــ مثلما تفعل البنـات ــ ومارست أولى تجـارب الحب المتعجلة ، وشـعرت فيها بالخوف أكثر مما شعرت باللذة · ورأت القطن ناصعا ، والقصب شامخا ، والفول عذب الريق كالعسل المصفى · رأت طيورا ملونة تنطلق فى سـماوات عالية لا نهاية لها ، ولا سحب فيها · وضحكت «سعدة» ورفعت عينيها من فوق المنظار ، فرأت الشاب الفلاح جالسا بجانبها ·

لم تدر سعدة متى جلس بجانبها . كان يجلس وهو يحملق أمامه فى خط مستقيم كأنه لايـراها . عيناه جاحظتان ، وشفتاه جافتان . حاولت سـعدة أن تعـود للاسطوانة فلم تستطع . كانت تسمع أنفاسه الثقيلة فى وضوح . التفتت اليه وهى تسأل :

ـ مالك .. تعبان ؟..

وحرك الشاب شفتيه كأنه يحاول عبثا أن يخـرج الكلمات من بينهما . ثم قال فجأة :

ـ عايز أقول حاجة ..

ـ قول ..

كان ينتفض تقريبا وهتف :

ـ تتجوزينى ..

كان فى حالة يرثى لها . وأوشكت سعدة أن تضحك أو تغضب . ولكن كل هـذا سوف يزيد من متاعبه . وساد الصمت . لم تنظر الى وجهه ، ولكنها كانت تحس به وهو ينتفض ، ويحاول أن يتماسك . كان صـوت الطائرة عاليا لدرجة أفقدتها القدرة على التفكير فى أى شىء . قالت فى هدوء :

ـ ماتروح تقعد مطرحك ..

ولكنه استعاد بعضا من قوته وهتف بها فى حرارة:

ـ انت أصلك فاكراني باهزر . وربنا المعبود أنا بتكلم جد . هى الحاجات دى فيها هزار . آنا صحيح لسه شايفك دلوقت . يعني وانت داخله المطار . بس وربنا المعبود زى ماأكون عارفك . عارفك من زمان خالص . أنا حتى متهيألى انى آعرف اسمك .. واسم بلدك .. واخواتك ..

وردت سعدة في برود.

ـ أنا ماليش اخوات ..

فانطفأت حماسته ، وساد الصمت باردا . وكف المغنى الصعيدى مجهدا . وواصلت الطائرة سيرها ظلت تحملق من خلال النافذة ، ولكنها أحست به وهو ينهض من جانبها ، ويذهب بعيدا . أحست أن جسدها بارد ، وفى حاجة لمن يمسك يدها . تمنت لو آن الغلام كان معها فى هـذه اللحظـة لاحتضنته وأخفت وجهها فى صدره .. وعادت المضيفة مرة آخرى . كانت تحمل صينية من الطعام وقالت لها :

ـ عجبتك الهدية ..

قالت سعدة وهى تحاول الابتسامة :

ـ دى الدنيا كلها فيها ..

وضحكت المضيفة، ووضعت الطعام أمامها ومضت.

كانت سعدة جائعة فأكلت كل شيء : المربى ، ثم الخضار ، ثم اللحم ، وكل الحلو على كل المالح . كانت محرومة منذ زمن بعيد . تقوم دائما وبطنها نصف ممتلئة . وفى كل مرة كان هناك سبب حتى لايمتلىء النصف الآخر . وأحست بسرور حقيقى بعد أن شربت الشاى ، وتمنت لو أن هذا الليل ينتهى ، وتبدو السماء الرائقة حتى تستطيع أن تفكر بعقل رائق . ورفعت عينيها تبحث عنه .

كانت المقاعد عالية فلم تستطع أن تراه . فكرت أن تنهض وتتعلل بأى حجة ، ولكنها استكثرت الأمر على نفسها . ثم رأته يطل عليها من خلف المقعد . لم يكن يظهر من وجهه الا عينا فأر مذعـور . ابتسمت سعدة فابتسم . ضحكت فضحك . ثم توقفا سويا عن الضحك ، وواصلا النظر ، كأن كلا منهما يعيد اكتشاف الآخر . واستلزم الأمر كثيرا من الشجاعة حتى ينهض ويجلس بجانبها من جديد .

ظلا صامتين وخف صوت محركات الطائرة كأنها قطعة من السحاب . كأن الريح هى التى تدفعها . وقال الشاب فجأة :

أصلى أنا حاشتغل فى مزرعة كبيرة ملك واحد من

الشيوخ الكبار قالولى كده • أصل دى أول مرة آسافر فيها • مش عارف حظى حيبقى ايه انتى سافرتى قبل كده ••؟

قالت سعدة :

أول مرة ••

ـ كان عندى بقرة يعنى مافيش الا هيه بعتها عشان الشغلانة دى السمسار والتذكرة ، والمصاريف وياريتها كفت • ربنا يسهل وأقدر أشترى واحدة غيرها • أمى زعلانة عليها قوىً كانت بتعتبرها من العيلة •

قالت سعدة :

ـ وأنا بعت جوز معيز وأربع بطات وعشر فراخ ، وثلاثة ديوك ، ويجى متين بيضة ، واستلفت فوق دا ودا ••

ثم صمتا وعادت المضيفة فنظرت اليهما سويا وابتسمت ، وهى تقول •• انتم عاملين جو •• واحمر وجه الفلاح فى خجل • وابتسمت سعدة وهى تقول •• يعنى •• وقالت المضيفة : مش عيزين حاجة • مع الأسف مافيش على الطيارة ورد • وانصرفت ، وبدءا يشعران بالبهجة من جلوسهما متجاورين سألها عن اسمها فقالت سعدة • وسألته فقال : مرعى • وعاد يقول :

ـ أنا كنت بتكلم جـــد ســاعة ماطلبت منــك تتجوزينى .

قالت بابتسامة : تانى ..

قال بحماس .. وربنا المعبود .

قالت :

ـ هو انت عارف احنا حانشوف بعض تانى والا لأ . انت عارف أنا رايحة فين . آنا نفسى مش عارفة . ولا انت كمان عــارف انت رايح فين آول ما الطيارة حتوصل كل حى منا يروح لحاله ..

قال مرعى بسرعة :

ـ لا .. حانتقابل ..

قالت : ازاى . صدفة ..

وسكت مرعى . كانت محقة . وابتسمت سعدة وهى تقول :

ـ شفت بقى انك أى كلام ..

وظل مــرعى حــائرا . كانت سعدة تآخذ المسألة بمحمل السخرية ، ولكنه أحس أنه فى ورطة . ولكنه هتف :

نتقابل فى مصر ايوه . لمــا نرجع انت حاتخــدى أجازتك بعد سنة من دلوقت وأنا حاخد آجازتى برضه

بعـــد ســـنة من دلوقت وآجى عنـدكم البلد ، وأقابل أمك ..

قالت سعدة :

ـ يامين يعيش بعد سنه ..

ـ لو عشنا حانتجوز .. يعنى انت حتعملى ايه السنه دى ، مش حتشتغلى وبس . أنا كمان حاشتغل وبس . ونرجع نتجوز ..

ونظرت اليه سعدة : تأملته للمرة الأولى كان جادا بشكل يثير الدهشة قالت :

ـ والله فكرة ياواد يامرعى .

ـ عرفتى بقى انى مش آى كلام ..

كانت هناك ندبة فى رقبته ممتدة الى أعلى الأذن . مدت سعدة يدها . ولمستها بأطراف أصابعها . كل مافى الأمر أنها أرادت أن تلمسه . أن تتأكد من وجوده . ولكنه انتفض ، فقالت :

ـ من ايه ؟..

قال وهو مازال غير قادر على السيطرة على نفسه :

ـ من الحرب .. أنا أصلى حاربت كثير قوى . كويس انى نفدت بعمرى ..

وضحك بجفاف وأضاف فى صوت خافت سمعته

«سعدة» بالكاد : آنا كنت بخاف من الطيارات قوى . ثم قال فى صوت عال :

ـ ماقلتليش .. تتجوزينى ..

وضحكت سعدة وهى تقول :

ـ بعد سنة أقولك ..

وبدت فى السماء أولى تباشير الفجر ونهض المغنى الصعيدى فأخذ يشدو حتى آبكى الجميع من الطرب . ووضعت بنت صغيرة حزاما حول وسطها وأخذت ترقص، وأمها تصفق فى حماس . وطاف أحد الركاب يحمل علبة «ملبس» وأخذ يفرقها على الركاب . ثم بدأوا يقولون النكات بصوت عال عن الصعايدة، والفلاحين: والأزواج المغفلين ، ورؤساء الجمهورية السابقين . وضربت المضيفة كفا بكف وهى تقول . أنا عمرى ماشفت رحلة زى دى أبدا .

ولكن الرحلة انتهت وارتفع صوت يأمر الجميع بأن يربطوا الأحزمة وكان الفجر قد بدأ يحط على الأرض . عندما كانوا يستعدون للهبوط كانت سعدة لاتزال تكرر ـ بناء على الحاج مرعى ـ اسم أمها ، والبلد ، والمركز ، المحافظة ، وطريقة الوصول والسؤال . وهو يكرر كل حرف وراءها ورغم آن نشوة الرحلة قد تبددت وكشف ضوء الفجر عن الوجوه المتعبة فقد تمنيا فى

لحظة واحــدة أن توجد طائرة ما ، تحملهما فى رحلة مباشرة الى تلك البلدة الصغيرة النائمة فى حضن الجبل، خلف النيل . تحت النخل ، فوق هضاب مقابر الذين رحلوا ، حيث يتم زواجهما فى ذلك الفجــر الندى . ولكن باب الطــائرة انفتح ، وقالت لهــا المضيفة : مع السلامة ياسعدة ، فتعلقت برقبتها ، ودمعت عيناها ، وهى تقول : سلمى لى على مصر . فقالت لها المضيفة فى رفق وحنان : وهى مصر فيها ايه ؟ وهبطت هى ومرعى فوق السلم المعدنى ..

كان الفجر ساخنا بعض الشيء وساعدها مرعى على ركوب الأتوبيس كانت همهمات السائق غريبة يتحدث مع شخص آخر بجانبه بلهجة لم تفهم منها سعدة شيئا . فهتفت دول مش عرب ؟ قال مرعى : دول هنود . فقالت باستغراب أشد : هو احنا فى الهند . وتوقف الأتوبيس أمام بوابة زجاجية كان المطار صغيرا ، ووجود مرعى بجانبها يعطيها الأمان . لم تحس بالرهبة أمام السكون الذى يخيم على كل شيء ، والنــاس الصامتون الذين يتأملونهم بلا مبــالاة ، وربمــا بلا ارتياح أيضــا . وأمسكت فجــأة بذراع مرعى للمرة الأولى ، وهتفت كأنها تستنجد به :

حاتيجى البلد ..

فهتف مرعى فى حرارة :

ـ وربنا المعبود لأكون جاى ..

كانت الاجـراءات تسـير بسرعة وصف الركاب يتناقص . وجاء رجل يلبس ثوبا أبيض ووضع يده على كتف مرعى ونظر فى جوازه . وحمل مـرعى حقيبته المربوطة على الكتف الآخر ، وقال لها فى حزن :

خلاص ... أنا حامشى ..

وسار مبتعدا وخرجت من البوابة الأخرى وتلفت نحوها ، ولوح بيده ، ثم اختفى . ذهب نهائيا كأن لم يكن . كأنه كان حلما . طلب منها الشرطى المزيد من الأوراق وفتش اللفافة التى تحملها فى شك واضح ولم يأت أحد ليأخذها . وعندما خـرجت من البوابة كان الجميع قد انصرفوا تقريبا . وسألت الشرطى الواقف على الباب ، فأشار عليها أن تجلس على أحد الكراسى ، وتنتظر ، حتى يحضر كفيلها ويأخـذها . وجلست سعدة ، ووضعت اللفافة أمامها ، وساد الصمت ..

ظلت مفتوحة العينين ، تترقب أى ثوب أبيض يقبل نحوها ولكن أحدا لم يأت . بضع من رجال الشرطة ، وأناس آخـرون يتجولون ، يحـدقون فيها بلا مبالاة .

أحست أنهـا مخنوقة وعلى وشك البكاء ، نهضت مرة أخرى وسارت الى الشرطى · ادته الاسم الموجود معها طلب منها رقم تليفون لعله يساعدها · ولما لم يكن معها عادت للجلوس · جاء أحد العمال الهنود آخـذ يمسح الأرض من حـولها ، فـرفعت اللفـافة وضـمتها الى صدرها ·

وبعد ساعة علت ضجة فى المطار جاء أناس كثيرون · ملامح غريبة · وهبطت طائرة صاخبة · وتوافد ركاب جدد ثم هدأ كل شىء وذهب الجميع وبقيت جالسة ·

بعد ساعة أخـرى كانت لاتزال منزوية شـاعرة بالبرودة الشديدة وهى تمتد كالنمل فى جسدها · ألم يكن مرعى قادرا على الانتظار حتى يطمئن عليها ؟··
وتنهدت ليته كان قادرا · امتلأت عيناها بالدمـوع ، ورفعت رأسها ، فوجـدت شخصا يلبس ثوبا أبيض ، وغطاء أبيض للرأس ، يقف أمامها وهو يتساءل :

ــ ايش فيك ؟··

أدركت أنه يسألها عما بها قدمت له صورة العقد ·
واذن الدخول · نظر الى الأوراق طويلا · وجاء شخص آخر من الخلف وأخذ يتطلع معه · كانت امرأة تلبس

ثوبا أسود يغطيها من الرأس الى القدمين · تغطى أنفها بقطعة غريبة من الجلد · وقال الرجل :

ــ زين ·· زين ··

فهتفت سعدة :

ــ أنت الـ ·· الـ ·· كفيل ··

عاد يكرر زين ·· زين ··

وابتسمت سعدة ، ولكن المرأة ظلت متجهمة · قال الرجل :

ــ تعالى ··

قالت المرأة فى حزم : لا ···

وتركاها ، وأخذا يتناقشان فى كلمات سريعة · لم تفهم سعدة منها شيئا · ثار الرجل وتلفتت المرأة حولها فى خشية ، وقال الرجل لسعدة :

ــ تعالى ··

وسار ، وسارت المرأة · وحملت سعدة لفتها ، وسارت وراءهما الى الخارج · كانت الحرارة قد بدأت تشتد ، وأحست سعدة أن الحياة قد بدأت تعود الى عروقها · سيارة كبيرة فى انتظارهم · دخلا أولا · وفتح الرجل الباب الخلفى لسعدة ·

العربة تسير · الشوارع واسعة صامتة متشابهة ·

الأركان لايسير فيها أحد على قدميه ، ولايوجد فيها ظل لشجرة . شــوارع لايوجد فيهــا معلم محدد يمكن أن يلتصق بالذهن . عمارات واسعة . دورات واسعة أحيانا، وفراغ صحراوى فى أحيان أخرى . عبرت السيارة أحد الأسواق وأحست سعدة بصخب الحياة لدقائق معدودة . ثم عاد الصمت . ثم دخلت السيارة فى شــارع ضيق يكاد يشبه شوارع قريتها لولا أنه مرصــوف بالأسفلت واحتــدم النقاش مرة أخــرى بين الرجــل والمرأة . واستغربت سعدة لأنهــا غــير قادرة على فهم كلامهما . كانت تعرف بعض الألفاظ المتناثرة ، ولكنها لم تدرك محور هذا الحوار المحتــدم . نهضت المرأة هبطت من الســيارة وأغلقت بابهــا بعنف دخلت البيت وأغلقت الباب أيضا بنفس العنف .. وعادا للسير ..

شوارع أخرى .. وميادين .. ودوارات .. كأن السيارة تدور حول نفسها .. ثم فجأة أصبحا فى الخلاء اختفت البيوت كأن لم تكن وامتدت الصحراء بصفرتها الباهتة ، وبدا خط الأسفلت الذى يشــقها نحيلا وعلى وشك الاختفاء . وقالت سعدة .

ـ هو احنا رايحين بلد تانية ..؟

فلم يــرد عليها . اوصلت الســيارة انطــلاقتها

المخيفة . عبر التلال الرملية والصخور . ثم انحرفت فجأة ، وتركت الطريق الأسفلتى الأسود ، وبدأت تتوغل فى الرمال ، وهتفت سعدة :

ـ انت واخدنى ورايح فين ياخويا ؟ .

فلم يرد عليها . ارتفعت السيارة وانخفضت دون أن تكف عن التوغل فى الرمال . والتفتت سعدة الى الوراء فرأت شريط الأسفلت يختفى آخر شىء كانت تعرفه . لم يبق الا هذه الصحراء الغريبة ، والسيارة الغريبة والرجل الغريب .

توقفت السيارة وسط الخلاء ، فتح الرجل الباب فهبت لفحة من الصهد جعلتها تنتفض خلع الغطاء الأبيض من فوق رأسه وألقاه على المقعد واستدار حول السيارة وفتح الباب المجاور لها وهو يقول فى صوت خشن انزلى تشبثت بالمقعد ولم يكن هناك ماتحتمى به ولكنه مد يده ، وجذبها بقوة . تشبثت بالباب . بالزجاج بأى شىء . ولكنه حملها وألقاها فوق الرمل . أحست به لافحا يلسع وجهها . كان وجهه باردا بلا أى انفعال يتطلع الى محاولاتها للخلاص فى سخرية . كان يعلم أنه فى مثل هذه الصحراء ، لايوجد بديل عن الاستسلام . كان من العبث أن تتوسل اليه . أو تستعطفه . وقع

الصيد وانتهى الأمر . حـاولت أن تنهض وأن تعـدو مبتعدة ، ولكنـه لحق بهـا ، وحملها وقذفها بعنف الى الأرض وظل الصمت الموحش المتواطىء يسود الصحراء وللمرة الثالثة عندما حاولت الهرب ألقى بها فى عنف أكثر . كأنه كان يريدها جثة هامدة . أو كأن هـذه الارتطامات جزء من المتعة التى يبحث عنهـا . أحست بجسمها وقد امتلأ بالكدمات تتصاعد منه خيوط الألم . بدأ يقترب منها . وجهـه يقترب من وجهها . رفعت أظافرها ، وغرستها فى وجهـه فرفع يده ولطمها على وجههـا . لطمات عـديدة حتى أحست كأن أسـنانها تتهشم . أمسك شعرها وجذبها حتى انثنت رقبتها ، ووضـع ركبته على بطنها حتى يمنع حـركتها تماما . فتحت عينيها فرأت وجهه كان الرمل ساخنا فى ظهرها . ويده تغوص فى جلدها . تتحسسه تكتشفه . ثم جذب الثوب من على صدرها فى حركة عنيفة . أغمضت سعدة عينيها فى خجل بالغ . كانت أصابعه تقبض عليهما كأنه يريد أن يخلعهما من مكانهما . انتفضت من الألم ومن التقزز . لم يكن نهـداها منطقة محرمة . فقد لمسـا مرارا ، وهى صغيرة فى كومة التبن . وهى كبيرة على حافة الترعة ، فى حارات القرية المظلمة ، فى زحمـة

الأفراح والموالد ، عندما تشتعل الرغبات ، وتكتسح حواجز التمنع • لكنها الآن تحس بهما جمرتين تتقدان في صدرها • تود لو يخلعهما ، ويلقى بهما بعيدا وسط الأحجار • أصابعه مثل ديدان غليظة لاتكف عن الزحف، كانت ترى ـ أخيرا ـ السماء البعيدة من خلف كتفه • ترى ذلك الشيء الذى يتحرك من خلف التـل الرملى • تريد أن تصرخ ، ولكنها لاتستطيع • ولكن الشيء واصل الظهـور من خلف التل فى بطء شـديد • شيء له لون الصحراء ، وصمتها المفزع • كان جملا يسير بلا صوت ويقترب بهدوء ، حدقت فيه بعينين ضارعتين • ولكنه حـدق فيها بلا مبـالاة • تمنت لو أنه يقترب أكثر • يدوس عليهما سويا بأقدامه الضخمة حتى يغيبا تماما داخل الرمل • ولكن الجمل ظل واقفا • يحـدق فيهما بعينيه الجاحظتين ويحرك فمه فى حركة دائرية يلوك شيئا لاينتهى ، ويجمع على شدقيه الرغوة البيضاء ••

كان الألم لايطاق فأخذت تبكى • وضربها فازدادت حرقتها • انفتحت كل أغوار الحزن فى داخلها • وخرج صوتها أخيرا فى صرخات متوجعة • وهـدر الجمل فى صوت غاضب فرفع الرجل جسده من عليها فى رعب • كانت كل ذرة من ذرات جسـدها ترتعـد • والشاهد

الأخرس يتطلع اليه · أمسك ثوبه وجرى الى السيارة عاريا · أدارها بسرعة ولف بها لفة واسعة ليبتعد عن الجمل · وارتفع صوت بكاء سعدة حتى ملأ الصحراء كلها ·

وبعد مدة كانت قد آنهكت من كثرة البكاء · لمت جسدها المتعب وجلست بصعوبة · كان نصفها الأسفل مليئا بالجروح وبقع الدم المختلطة بالرمل · وكان عليها أن تنهض والا ماتت فى هذه الصحراء · يجب أن تتبع آثار السيارة قبل أن تمحوها الريح · لملمت الثوب الممزق ، وبدأت تسير مترنحة تحت الشمس القاسية · لم تكن هناك نسمة واحدة من الهواء · والآثار تتلوى · تظهر أحيانا وتندثر أحيانا · كانت سعدة تسقط · وتعاود النهوض وتترك على الرمل أثرا منها ، وتلملم الثوب الممزق حول جسدها العارى ، وكان الجمل مازال يتبعها يقف عندما تقف ويسير عندما تسير ··

وأخيرا ظهر شريط الأسفلت الأسود · شهقت فى ألم ، وأخذ جسدها كله يرتجف · ارتمت بجانبه · مدت يدها ولمسته فلسعها · وظل الجمل واقفا على مبعدة منها · مرقت سيارة فرفعت يدها ، ولكن السيارة لم تقف · ثم مرقت ثانية ·· وثالثة ··

وبعد زمن لاتدرى طوله ، وسيارات لاتدرى عددها ، توقفت سيارة ، وأحست بيد توضع على ظهرها .. كان أحد رجال الشرطة : أسمر الوجه . ابتسم لها وساعدها على النهوض . ثم على الجلوس داخل السيارة . وقال يخاطب زميله الجالس خلف عجلة القيادة :

ـ هادى ماهى جثة ياآخى زى ما البلاغ جال .. هادى ..

ونظر الى ثيابها الممزقة وقال فى تأكيد :

ـ حالة اغتصاب .

كانت ماتزال ترتعد . أكلت بعض قطع من البسكويت ، وشربت قليلا من الشاى .. وأخذت تستعيد كل التفاصيل المروعة . كانت قد دخلت فى الكابوس ولم تعد تستطيع الخروج منه . ظلت تتكلم تهرف .. تداخلت التفاصيل .. وفى قسم البوليس طلبوا منها اعادة كل شىء . ولكن كل شىء كان بلا بداية ولا نهاية . سألوها ان كانت بحاجة للذهاب الى المستشفى فبكت وقالت : انها فى حاجة للعودة الى مصر . أعطوها ثوبا من ثياب السجن . وضعوها داخل احدى سياراتهم وبدأوا جولة جديدة فى أنحاء المدينة . لعلها تتعرف على الشخص ، أو السيارة ، أو مكان البيت الذى هبطت

عنده المرأة . كانت المدينة ماتزال متشابهة ، وماتزال معادية . مليئة بالفخاخ . طلبوا منها أن تركز ، وأن تساعدهم . ولم يكن هناك من يساعدها . والسيارة تدور فى دوامة لاتنتهى . وأسئلة رجال الشرطة تحاصرها كأنها هى التى حرضته على اغتصابها . أخذوها الى المستشفى . وفحصها الطبيب فعادت تبكى حتى تركها . عادوا يطوفون بها فى الشوارع . ثم أعادوها الى القسم وضعوا المداد الأسود على أصابعها ، وجعلوها تبصم على عدة أوراق . هتفت فى توسل :

ـ رجعونى

أخذوها للمطار . وضعوها فوق مقعد فى أحد الأركان . جلست القرفصاء وأخفت وجهها خلف ركبتيها . لم تكن تعلم من أين تأتى الطائرة . ومتى تأخذها بعيدا ؟ أحست بالانكسار المر .. وفكرت فجأة فى مرعى .. هل مازال يذكرها ؟.. هل كان مصيره أفضل من مصيرها ؟ هل سيأتى الى بلدتها بعد عام حقا ؟ ماذا ستفعل اذا جاء وطلب الزواج منها . سوف يجد أنها ليست نفس الشخص .. لن يجد الا بقية ضئيلة من سعدة القديمة .. وطغى عليها شعور بالمرارة ، فأجهشت فى البكاء ، وهى تقول :

ـ حاقولك ايه بس يامرعى

الفهـــرس

صدر من هذه السلسلة :

● الرجل المناسب	(قصص)	فتحي غانم	١
● دموع رجل تافه	(قصتان)	عبد الرحمن فهمي	٢
● الجميع يربحون الجائزة	(قصص)	أبو المعاطى أبو النجا	٣
● بالأمس حلمت بك	(قصص)	بهـاء طاهر	٤
● رباعيـــات	(قصص)	شكرى عياد	٥
● من قتل الطفل	(مسرحيتان)	عبد الغفار مكاوى	٦
● منتصف ليل الغربة	(قصص)	جمال الغيطاني	٧
● رشق السكين	(أقاصيص)	محمد المخزنجي	٨
● وعلى الأرض السلام	(رواية)	فاروق خورشيد	٩
● الأشواق والأسى	(قصص)	عبد الحكيم قاسم	١٠
● والبحر ليس بملآن	(رواية)	جميل عطية ابراهيم	١١
● أن تنحدر الشمس	(قصص)	سحر توفيق	١٢
● لا تسقنى وحدى	(رواية)	سعد مكاوى	١٣
● كهف الأخيار	(قصص)	شكرى عياد	١٤
● محطة السكة الحديد	(رواية)	ادوار الخراط	١٥
● حصار القلعة	(م. شعرية)	محمد ابراهيم ابو سنة	١٦
● أربعة فصول شتاء	(قصص)	محفوظ عبد الرحمن	١٧
● سارق الكحل	(قصص)	يحيى حقى	١٨
● أنا الملك جئت	(قصص)	بهاء طاهر	١٩
● تاريخ حياة صنم	(قصص)	عبد الرحمن فهمى	٢٠
● الوداع : تاج من العشب	(قصص)	عبده جبير	٢١
● النجوم العالية	(قصص)	محمود الوردانى	٢٢
● قلوب خالية	(رواية)	عبد الرحمن الشرقاوى	٢٣
● الشجرة والعصافير	(قصص)	ابراهيم عبد المجيد	٢٤
● عطشان يا صبايا	(قصص)	سليمان فياض	٢٥
● طرف من خبر الآخرة	(رواية)	عبد الحكيم قاسم	٢٦
● طعم القرنفل	(قصص)	جار النبى الحلو	٢٧
● السحر الأسود	(رواية)	شفيق مقار	٢٨
● تسلق الجدار الأملس	(قصص)	حسنى عبد الفضيل	٢٩
● احتضار قط عجوز	(قصص)	محمد المنسى قنديل	٣٠

العدد القادم :

● رحلة فى الليل	(قصص)	عبد الله خيرت

فى أعدادنا القادمة :

● حبات النفتالين	(رواية)	عالية ممدوح
● الهلافيت	(مسرحية)	محمود دياب
● الخوف	(رواية)	عبد الفتاح الجمل
● ما أجملنا	(مسرحيات)	محفوظ عبد الرحمن
● لم يعد الضحك ممكنا	(قصص)	يوسف القعيد
● الصخرة والطوف	(مسرحيات)	فؤاد التكرلى
● الحنان الصيفى	(قصص)	أحمد الشيخ
● مسالة لبنى	(مسرحية)	يحيى عبد الله
● حبال السام	(قصص)	فاروق خورشيد
● المظلات	(قصص)	عائد خصباك
● عفاريت الجبانة	(مسرحية)	نعمان عاشور
● عكس الريح	(قصص)	يوسف أبو رية
● هذا ما كان	(قصص)	محمد البساطى
● زهر الليمون	(قصص)	علاء الديب
● رياح الشمال	(قصص)	ابراهيم أصلان
● القط البرى	(قصص)	سليمان فياض

تطلب كتب هذه السلسلة من :

● باعة الصحف ● مكتبات الهيئة ● المعرض الدائم للكتاب بمقر الهيئـــة ●
معـــارض الكتاب بداخل مصر والخارج ● مكتبات الهيئة المتنقلة بالأحياء والأقاليم .

مطابع الهيئة العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٦/٤٢٠٠

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١٠٤٩ ـ ٢

مختارات فصول

تصدر أول كل شهر

فى هذه القصص ، التى تحتوى كل منها على « مادة » رواية طويلة ، نفحة من كل ما هو « ثابت » فى أدب عصرنا ولا يزول ، ويتجدد مع كل جيل ومع كل اتجاه إبداعى قوى : نفحة الارتباط بما هو غريزى فى الانسان ، ووحشى وقاس ؛ ونفحة البحث عن المعادل اللغوى ـ الطبيعى والواقعى للطبيعة الانسانية ذاتها . إنها أعمال أديب مصرى فى جيل السبعينات ، طبيب وصحفى ، ومولع ـ كما يتجلى فى كتابته ـ بأدغال المدينة وبأدغال نفوس أهلها وبما يتركه اشتباكهم معها من ندوب . وهى أعمال تؤكد التواصل ـ لا التعارض ـ بين أجيال مبدعينا : التواصل وتبادل التأثر بين أجيال الذين سعوا إلى الواقعية ، وإلى الطبيعية ، وإلى الرمزية . . وإلى الصدق المثير أيضا ، فى كل الأحوال .



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٥٠ قرشـــا